أيّا مَنْسّـيْ

عنوان الكتاب: أيّا مَنْسَّيْ

الموضوع: رواية

التأليف: ميار طارق

مراجعة لغوية: محمد منصور

إخراج فني: محمد منصور

تصميم الغلاف: بلال محمد

رقم الإيداع: **2020/15790**

الترقيم الدولي: **978-977-6639-90-4**

الناشر: دار تويتة للنشر والتوزيع

www.facebook.com/Tweetforpublish

tweetpublishing2017@gmail.com

٧ش محمد أبو العطا- محطة العريش-فيصل- الجيزة

رئيس مجلس الإدارة: م/ أحمد عبد العزيز

المدير العام: أ/ رشا العمري

01017799799

01225762066

تويتة Tweeta للنشر و التوزيع

#غرّد_للعالم

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

أيّا مَنْسّـيْ

رواية

ميار طارق

دار تويتة للنشر والتوزيع

إهداء

إلى كلِ روحٍ اختلجت بثنايا روحي

فمنحتني معنًا آخرًا للحياة..

وسطرًا آخرًا لأكتبه..

وقصة جديدة لأراها بعينيّ ويراها

العالم..

واقتباسًا سيظل خالدًا أبدًا..

لا يُنسى...

مقدمة

ما أنت مقبلٌ على قرائته ربما يظهر لكَ من الوهلةِ الأولى كأمرٍ صعب المنال، بعيد كل البعد عن الواقع..

لكن ما إن تتعمّق في تفاصيله حتى تجد أنه ليس إلا حلم؛ حلم نتمنى لو يتحقق على أرض الواقع، نتمنى أن تواتينا الشجاعة لنجعله حقيقة تمامًا كما واتتنا لنخرجه في أحرفٍ بحبرِ أقلامنا..

ولتتذكر دومًا عزيزي القارئ أنه لا ضير في أن نحلم، ونتمنى كل ما هو مستحيل من منظورنا المنطقي، بل ونرغب في كل ما يُنافي واقعنا، وكل ما يحاول الجميع إخبارنا بأنه غير ممكن؛ لأن استحالية اليوم هي حتمية الغد..

وما صَعُبَ واستحال اليوم وأصبح غير عقلاني ويُنافي كل ما يتعلق بالمنطق، سيصبح واقعًا ملموسًا غدًا إذا توقفنا نحن أولًا عن النظر إليه كمستحيل..

فحتى المستحيل يصبح حقيقةً يومًا ما..

١

غزة.. جنوب شرق المتوسط.. قلب فلسطين النابض؛ ربما لأنها أكثر المدن نبضًا بالدم الفلسطيني عن مدن أخرى أخفى الاحتلال معالمها باحترافية شديدة حتى لتشك ثوانٍ قبل أن تطلق عليها فلسطين.

في مخيم الشاطئ.. على ساحل المتوسط الهادئ تحاول سرقة القليل من الوقت لتختلي بنفسها بعيدًا عن البشر؛ لتطرح تساؤلاتها بحرية بعيدًا عن أسرتها التي تمنعها من الأمر خوفًا عليها، ولأنهم لن يتحملوا خسارتها هي الأخرى بعد أن خسروا أخيها الأكبر غسان لأنه كان يدافع عن قضيته كأي فلسطينيّ حتى انتهى به الأمر مضروبًا بقسوة من جنود الاحتلال وملقى بإهمال في البحر حتى أكل السمك جسده. بالطبع لم يكن من أولوياتهم أن يبعثوا بجثته إلى أمه الملتاعة أو لوالده الذي أحنى الزمن ظهره من محاولاتٍ واهية لمنح عائلته حياةً مستقرة في زمن لم يعد يعرف للاستقرار معنى.

أيّا مَنْسِيْ

كانت تعرف أنها أصبحت هكذا بفضل غسان، أو ربما من أجل غسان، لطالما دافعت عن القضية، لكن لم يتعدَّ الأمر احتجاجات تلقيها بين الفينة والأخرى طفلةٌ صغيرة في عامها الثالث عشر. لكن وبعد وفاة غسان.. ملهمها وقائدها الأول والأخير، ومع وصولها لربيعها الخامسِ والعشرين، وجدت أنه لا طائل من تلك الاحتجاجات طالما لم يتبعها العمل، يجب عليها أن تُحدث فارقًا.

ثم من قال أنها تخشى الموت، لقد باتت تحيا معه طوال الوقت، باتت تتوقع مجيئه في أي لحظة، ربما هذا هو ما ساعدها على تحسين علاقتها بربها كثيرًا؛ باتت قريبةً أكثر ممّا كانت عليه قبل العشرين. ربما هذه ميزة لأهل فلسطين؛ هم وُضعوا في موقفٍ جعلهم يدركون معنى الدينِ حقًا، جعلهم يدركون كيف يتقرّبون إلى الله، كيف لا يخشون الموت بل على العكس يستعدون لاستقباله برضا وسكينة للقاء ربهم، فهل هناك أسمى من هذا.

أخرجها من أفكارها الكثيرة صوت أخيها الأصغر عبود وهو ينادي عليها بعصبيةٍ شديدة وكأنه كان ينادي عليها منذ أمس حتى انتبهت:

"ماذا بك عبود؟! لمَ تنادي عليّ بهذه الطريقة؟! أنا أمامك ولست في شارعٍ آخر!!"

="لو كنتِ أجبتي من المرةِ الخامسة لما ضقت ذرعًا ووصلت للمرة العاشرة لأنادي عليكِ وأنتِ في عالمٍ آخر. أبي يريدكِ أن تعودي للبيت حالًا، ويقول أنه لا يمكنكِ الجلوس أمام البحر اليوم بأكمله. هيا "وانا" عليكِ العودة معي الآن"

--"حسنًا عبود أنا آتية خلفك"

همّت بالتحرك بضجر رافضةً إخراجها من عزلتها التي تحتاج من الحين للآخر. لهذا وهي تسير عابسة الوجه غير عابئة بما حولها وجدت أحدهم ينادي بأعلى صوته:

"هااي يا آنسة، ألا تنظرين إلى الطريق أمامكِ وأنتِ تسيرين، كيف سأتصرف الآن؟!!"

نظرت خلفها نحو مصدر الصوت فوجدت شابًا قوي البنيان يقف متكئًا على إحدى ركبتيه ناظرًا للأرض في أسف وممسكًا بإحدى يديه صنارة صيد. نظرت إلى موقع نظره لترى دلوًا من الماء مسكوبًا على الأرض والأسماك التي كانت بداخله تتلوّى على الأرض بحثًا عن الماء من جديد. لم تشعر بنفسها إلا وهي تمسك بالدلو سريعًا وتجرى تجاه الشاطئ وتملأ الدلو بالماء مرةً

أخرى ثم تمسك بالأسماك الصغيرة وتضعها في دلو الماء بحرص، ثم انتظرت لدقائق حتى عادت الأسماك تتحرك من جديد في المياه، تنفست الصعداء لذلك المشهد ثم نظرت إلى الشاب الذي كان ينظر إليها بدهشة وهي تقول:

"أعتذر لم أرك. هذا خطأي. لم أكن في كامل تركيزي لهذا حدث ما حدث، لكن كل شيءٍ على ما يرام الآن وأسماكَ بخير. أعتذر مرةً أخرى"

ثم ركضت مهرولة تجاه منزلها وهي تعلم أنها ستسمع ما لا يرضيها على تأخّرها هذا عندما تعود.

في هذه الأثناء كان الشاب يحرك رأسه يمنةً ويسرة في اندهاش من تصرف تلك الفتاة الغريبة التي كانت عابسة الوجه قبلها بدقائق ولم تشعر بما فعلت، ثم بعدها بثوانٍ تغير وجهها تمامًا لأشد الندم وأمطرته بالاعتذارات بل وأصلحت ما أفسدته ثم رحلت هكذا دون أن تدع له مجالًا

لقول كلمة واحدة حتى.

*****

٢

على الرغم من كل ما مرت به مع عائلتها، وعلى الرغم من أنها لم تعرف الاستقرار منذ يوم مولدها وحتى أكملت ربيعها الخامس والعشرين إلّا أنها لم تفكر قط في وجودها في وطنٍ آخر غير فلسطين، كانت فلسطين هي الأولى والأخيرة، كانت هي المبتدأ والمنتهى، كانت هي السؤال والجواب، كانت هي كل شيء. ولو عاد بها الزمن آلاف المرات لما رغبت في وطنٍ آخر إلّاها. فلسطين باتت جزء من روح "وانا"، ذلك الاسم الذي أطلقه عليها والدها لأنه أرادها أن تكون فتيّة، قوية لا تعرف اليأس، ولا يعرف الفشل أو الضعف لها طريقًا، باتت تتمنى لو تمنح فلسطينًا جزءًا من قوتها، لو تُعيدها شابة فتيّة مرةً أخرى بعد أن أنهكتها الحروب وجعلتها تشيخ مئات السنين، بعد أن أحنت ظهرها المدافع وجعلتها جنائز أبنائها لا تتخلى عن ثوب حدادها الأسود.

هي تعلم أنها أصبحت إلى حدٍ كبير كفلسطين منذ وفاة غسان، لكنها تعرف أنه لازال للقصةِ بقية، وهي متيقنة من عودة فلسطين ذات يوم، لكنها تود لو تشارك في هذا، تود لو تشهد تلك العودة المهيبة التي لن يتوقف التاريخ عن ذكرها مثلما لم يتوقف عن الحديث عنها إلى الآن.

لطالما تمنّت "وانا" أن تُزيل عن فلسطين ثوب حدادها الأسود، أن تمنحها السكينة التي لطالما افتقدتها، أن تمنحها الهدوء الذي لطالما رغبته وأبت أصوات رشاشات الاحتلال أن تلبي لها رغبتها. وفكرت كثيرًا في عائلتها أيضًا، لكنها كانت تعلم أن مكانها إلى جانب فلسطين في حربها، لن تتركها بمفردها هي أيضًا، لن تترك ساحة المعركة وتلوذ بالفرار مثلما فعل الكثيرون، بل ستقاتل بضراوة من أجل فلسطين، ستقاتل بضراوة من أجل عائلتها، من أجل أن يحيا والداها ولو ليومٍ واحدٍ في هدوء، من أجل أن يحيا أخاها عبود مستقبلًا يطمئنها إذا ما رحلت، من أجل غسان، ومن أجلها، من أجل أن تعرف أنها لم تيأس ولم تضعف، من أجل أن ترى نصرها قبل الرحيل. لا يهمها إذا رحلت فالآلاف قد رحلوا ولا زالوا، ما يهم هو الأثر؛ أن ترحل تاركًا أثرًا

سيعيش ولن يموت أفضل بكثير من أن تقضي أيامك عبثًا لا لون لها ولا فائدة.

وهي قررت أن تمنح حياتها ذلك اللون وتلك الفائدة، وقررت أن تخبر عائلتها بقرارها الأخير الذي لن تتراجع عنه مهما حدث.

*****

٣

لم تدع الوقت يمضي بلا طائل أكثر من هذا، انتظرت حتى أنهوا طعامهم ثم أخبرتهم بكل جدية وبما لا يدع مجالًا للشك:

– "أود أن أكون جزءًا من المقاومة".

انتبهت كل الأعين لها مرةً واحدة، واتسعت حدقتا عينيّ والدتها هلعًا، وكان نصيب والدها من الصدمة ليس بأقل من نصيب والدتها، لكنه سارع بقوله:

= "ماذا قلنا عن هذا الأمر قبلًا وانا؟!!"

–"أعرف أبي، أعرف كل ما قلناه وسنعيد قوله الآن. لكن دعني أنا أتحدث هذه المرة، هذه المرة أنا جادةٌ للغاية، هذه المرة أود أن آخذ خطوةً بالفعل، لا أريد التراجع أبي. ألم تعهدني فتاتكَ القوية التي لا تيأس ولا تستسلم. ألم تعهدني صامدة لا أنكسر.. مثل غسان.."

قاطعها والدها قائلًا:

="لكن غسان.."

لكنها لم تدعه يكمل فقاطعته قائلة:

–"غسان لم ينكسر أبي، غسان وصل إلى ما أردنا جميعًا الوصول إليه، غسان خلّد ذكراه أسمى تخليد، منحنا حياةً مشرفةً للغاية، منحني فخرًا لن أفقده أبدًا. وأنا أيضًا أود أن أكون مثل غسان أبي، أنا أيضًا أود استعادة فلسطين، أود تحرير الأقصى أبي. اتركني أفعل كل ما بوسعي عسى أن يكون الفرجُ قريبًا".

لم يستطع والدها أن ينبس ببنت شفة بعد ما قالته، لقد أمسكته من ذراعه الذي يؤلمه. كانت حجتها قوية بلا أي ثغرات. لكن ما جعله يشجعها هذه المرة هي تلك النظرة التي يلمحها في عينيها للمرةِ الأولى، تلك النظرة المليئة بالإصرار الذي لن يستطيع أي عدوٍ أيًا كان أن يسلبها من ابنته القوية، فلن يسلبها منها هو فقط لأنه والدها. سيتركها، هي كانت محقة في كل ما قالت، كانت محقة في ذلك الفخر الذي تركه غسان قبل وفاته وبعد وفاته، وكان يعرف أن نصيبه من الفخر بأبنائه سيبلغ عنان السماء. لهذا أراد أن يجعلها تفعل هذا بنفسها، تحقق ما تمنت، وكان يعرف بأنها ستنجح في هذا.

*****

بعد أن وافق والدها ومنحها تلك الجرعة من التشجيع التي جعلت نهر حماسها لا ينضب قررت أن تذهب إلى مكانها

المعتاد.. ساحل البحر، فهو الوحيد الذي لا يتكلم، فقط ينصت ويتفهّمها جيدًا، هذا ما تشعر به. لكنها آتية تلك المرة ليس لتلقي أحزانها وآلامها بل لتشاركه سعادتها العارمة.

وصلت إلى مكانها المعتاد وأخذتها أفكارها إلى مطارِح عدّة كعادتها أمام البحر حتى أخرجها من شرودها ما سمعته على مقربةٍ منها وجعلها ترهف السمع أكثر..

"في القدس رغم تتابع النكبات
ريح براءةٍ في الجو
ريح طفولة
فترى الحمام يطير
يعلن دولةً في الريح
بين رصاصتين"

تميم البرغوثي[1]

١- تميم مريد البرغوثي: هو شاعر فلسطينيّ- مصريّ من مواليد عام ١٩٧٧. والداه هما الروائية العظيمة رضوى عاشور والشاعر الجلِل مريد البرغوثي. مجموعته الشعرية الأولى تُدعى "ميجانا"، كُتبت باللهجة الفلسطينية وتم نشرها في رام الله بفلسطين. أما الثانية والتي كُتبت باللهجة المصرية تُدعى "المُنْذِر". هذا بالإضافة إلى أعمالٍ أخرى كثيرة له أحدها هو "في القدس" وهي قصيدة شعبية قام بتأليفها في العام ٢٠٠٧، وقد وصفته الصحف الفلسطينية في ذلك الوقت بأنه "شاعر القدس".

لم تستطع أن تمنع نفسها فتحركت تجاه الصوت وعندما كانت على وشك أن تتكلم ارتسمت الدهشة على محياها، لكنها استطاعت أن تقول: "أنت!!"

="نعم أنا. ثم إنكِ رحلتِ سريعًا المرة الماضية ولم أفهم شيئًا مما فعلتِ"

-"ماذا فعلت؟!!"

="أنقذتِ أسماكي بعد أن كدتِ تقتلينها"

-"هذا أمرٌ طبيعيّ، ماذا تظن؟! أنني سأتركها للموت"

="هنا فلسطين يا عزيزتي، كل شيءٍ يؤدي إلى الموت"

-"حسنًا أخبرني، أأنت تلقي أشعارًا هكذا دومًا؟"

="لا ليس دومًا، فقط عندما أبدأ الصيد وأشعر بالرغبة في ذلك، أو كلما وُضع مسمارًا في نعش فلسطين أفعل هذا"

-"لهذا تميم على وجه الخصوص؟"

="لأن كلماته تلمسني، لأن هناك من لازال قادرًا على أن يتحدث عن فلسطين دون أن يخشى شيئًا كما فعل من سبقوه"

-"إذن لماذا لا تتحدث أنت عن فلسطين؟"

="أترك الشعر لناسه وأؤدي عملي من ناحيةٍ أخرى"

-"ماذا تقصد؟!!"

="ماذا تظنين؟!!"

-"شعرت بهذا، شعرت بأنك واحدٌ منهم. إن الأمر غاية في الوضوح، تحاولون عدم إظهار الأمر لكنه يفيض على كل هيئتكم. من الذي لازال يصطاد في بحر فلسطين الذي مات منذ الكثير؟!!".

="أرى أن البؤس الذي يسكنني قد انتقل إليكِ سريعًا".

-"أنت لست بائسًا كما أنني لست هكذا بالطبع، إنها مجرد محاولة لتظهر إنك هذا المغلوب على أمره، الذي ينتظر الموت باستسلام فليس هناك ما يفعله".

="حسنًا أنتِ ذكية بحق واستطعتي كشف لعبتي. تعاملي مع الأمر كما أنكِ لم تسمعيه إذن".

-"ماذا تقصد؟! بالطبع لن أفعل هذا، كنت أنت إشارتي بعد أن تمنيتها كثيرًا.

أود الانضمام أنا أيضًا"

="تنضمين أين يا فتاة!!"

التمعت عيناها بكل شغف الدنيا وهي تجيب:

"إلى المقاومة"

*****

٤

لم تكن "وانا" تدري علامَ هي مُقدِمة، أو هكذا ظن غيث.. ذلك الشاب القوي ذو السبعة وعشرين عامًا، الذي انضم للمقاومة منذ سنوات بعد أن خسر والده بذخيرةٍ إسرائيلية وقت الصيد ظنًا منهم أنه قد تعدّى الحدود المنصوص عليها، مع أنه بالطبع لم يفعل. وكانت أخت غيث مع والدها في ذلك الوقت فأصابتها تلك الرصاصات الغاشمة لتُرديها صريعة إلى جانب جثة والدها ويرحل الاثنان من حياة غيث ووالدته دفعةً واحدة، فاضطر إلى القدوم مع والدته إلى مخيم الشاطئ. تحسّنت الأحوال بعد فترةٍ ليست بالقصيرة رأى فيها غيث الموت كل يوم وهو لا يستطيع إحضار الطعام لوالدته العجوز، ينتظر الرصاصات الغاشمة التالية في حياته كل يوم لينهيها كما فعل بوالده وأخته. انتظر طويلًا لكن الموت أبى، واعتبرها إشارةً أخرى لفعلٍ سيغير حياته رأسًا على عقب؛ فعلٍ لم يشعر بحاجته الماسة له إلا في ذلك الوقت على وجه التحديد، ثأرٌ لا يمكنه تركه، ثأرٌ من كل شخصٍ يعترف بذلك العلم القاتل. لن يترك حق والده وأخته، ولا حق والدته، ولا حقه ولا حق فلسطين، بل وسيحرر الأقصى أيضًا، ألم

يسخروا دومًا من حلم تحرير الأقصى، إذن سيحررها ليجعلهم جميعًا يسخرون من أنفسهم وليس من حقه.

كيف ينظرون للأمر على أنه حلمٌ يود تحقيقه وهو أبسط حقوقه!! أن تصبح كل قطعة من تلك الأرض التي يحيا عليها ملكًا له، لا أن يكون محاطًا بسياج كشخصٍ سيلوث آخرين، كيف يصبح المالك هو السارق!! كيف يتم طرده من أرضه بكل وقاحة!! كيف يصدق الكاذب كذبته ويساعده آخرون عليها!! كيف يستطيع العالم التعايش معه بهذه السهولة!! كيف يقبلون صاغرين!! كيف يكونون ضعفاء حتى في الرفض والمقاومة!! كيف!!

لكنه ليس بضعيف ولم يكن أبدًا. علّمه والده أن الوطن يستحق منا التضحية، وهو يعلم أن فلسطين تستحق، ووالده قد ضحّى كثيرًا والآن هي فرصته، فإما الآن أو لا أبدًا. يكفيه سنوات الحجارة تلك، حان الآن وقتٌ آخر، وقت شيءٍ أكثر تطورًا، وقت ما سيؤلم العدو بحق.

تذكر الفتاة التي تحدث معها وهو لا يعرف عنها شيئًا، تأكد من أنها تشاركه شيئًا هي الأخرى يدفعها للانضمام هكذا بجنون، لقد رأى تلك النظرة في عينيها، يعرفها جيدًا عن ظهر قلب؛ فهي

كانت نظرته منذ سنوات، وهو يعرف ما يلي تلك النظرة وما يمكن أن تأتي به، يعرف أنها ستأتي بالكثير إذا تم استغلالها بصورةٍ صحيحة. هذه الفتاة كنز عليه أن يحافظ عليه، هذه الفتاة ستساعده في الوصول لما يريد، بها ما يجذبه، هي أيضًا تود أخذ خطوةٍ جادة للتغيير، هذه الفتاة ستغير بحق، هذه الفتاة يجب أن تنضم.

*****

في اليوم التالي كانت "وانا" في مكانها المعتاد تنتظر، تعلم أنه سيأتي، قلبها يخبرها بهذا بل وكل حواسها، تعرف أنها فرصتها، تعرف أنها قد أتت إليها ولا يمكنها الهرب من هذه الثقة التي اعترتها من اليوم السابق عندما تحدثت معه، بالطبع هناك شيءٌ ما وراء حماسها المبالغ فيه هذا مع شخصٍ لا تعرف اسمه حتى، لكنها كانت تعرف في قرارة نفسها أن الأمر قادمٌ إليها لا محالة، وسيحدث هذه المرة.

وبالفعل لم تمر عشر دقائق إلا وكان غيث قد أتى وجلس إلى جوارها وأخبرها بالموافقة، لتلتمع في عينيها نفس النظرة مرةً أخرى ليطفئها هو بقوله:

="اهدئي عزيزتي. عليكِ أن تعلمي أن الأمر لا يعتمد فقط على الحماس، فهناك أشياء أخرى كثيرة ستفقدينها بالمقابل"

لم تتغير نفس النظرة من عينيها وهي تجيب:

-"ومن قال أنني لم أخسر بالفعل؟!!"

="لكن الخسارة هذه المرة ستكون فادحة وفي أي وقت، هذه المرة هي حياتك".

-"لقد خسرتها بالفعل عند رحيل أخي. هيا بإمكانكَ إخباري بكل شيءٍ الآن".

="حسنًا..لكنك لم تعرفِ اسمي إلى الآن وأنا لم أعرف اسمكِ بعد. أتنوين الانضمام دون معرفة هذه التفصيلة الصغيرة!!"

-"لا أعلم إذا كنت مدركًا أنك تقوم بتضييع الوقت بتلك الطريقة أم لا، لكن لنختصر المزيد من الوقت. اسمي "وانا"، وأنتَ؟"

="في الواقع لا أعلم لمَ أنتِ محتدةٌ هكذا، ثم أي وقتٍ تخافين ضياعه، عزيزتي هنا فلسطين، نحن لا نملك إلا الوقت. ثم ماذا يعني "وانا".. ؟"

-"يكفي ما ضاع منا، لنحافظ على الباقي إذن. و"وانا" يعني الشابة الفتيّة"

="وهذا ظاهرٌ عليكي. جميلٌ للغاية اسمكِ "وانا"، وأنا غيث"

-"لستُ في حاجة إلى معرفة معناه. والآن ما هي التفاصيل؟"

="أنتِ حقًا حادة الطباع، من أين أخذتِ هذه الطباع يا فتاة؟"

-"حسنًا، أولًا أنا لستُ بفتاةٍ صغيرةٍ أمامك حتى تناديّ عليّ بفتاة. ثانيًا أنا ليس لديّ اليوم بأكمله لترهاتك هذه، أنت لا تُقدّر قيمة الوقت وأنا حقًا لا أعلم كيف أنت فردٌ من المقاومة بتلك الطريقة. ثالثًا إذا لم تخبرني بما أحتاج سأرحل ولا أريد أن أرى وجهك مرةً ثانية. لن يشعر بالأمر إلا من مرّ بالتجربة يا فتى".

اشتعل وجه غيث من الأحمرار واحتدّ كثيرًا من كلماتها الأخيرة فاقترب منها بطريقةٍ مرعبة وهو يصيح هادرًا:

="ألم تتعلمي أن تحترمي الآخرين وتقدري ظروفهم. إذا كنتِ تظنين أنكِ فقط من فقد أشخاصًا قريبين إلى قلبه فأنتِ خاطئة. إذا كنتِ قد فقدتي أخيكِ فأنا قد فقدت والدي وأختي مرةً واحدة. ولا أقلل أبدًا من فقدكِ لكن أحاول أن أشرح لكِ أن كلًا منا له تجربةٌ ما. ودخول هذا المجال متأخرًا يعني أنكَ قد طفح بكَ الكيل وبت تنوي الدمار والخراب والقتل بلا هوادة. لهذا أخبركِ أنكِ محتدة وعليكِ أن تتريثي إذا كنتِ تودين تغيير شيءٍ حقًا".

ثم صمت فجأة، وظل يتنفس بصعوبة من فرط عصبيته، فكلماتها ضربته في مقتل، كيف تظن أنها هي فقط من يتألم؟!! كيف تظن أنها وحدها من يعرف معنى مرارة الفقد ورغبة الانتقام؟!! كيف تظن أن لا فلسطينيّ إلّاها مر بتلك التجربة وهي وحدها من يعلم؟!!

لكن لَامَّ نفسه كثيرًا، لم يكن عليه أن يفعل هذا مهما حدث لكن كلماتها كانت بالفعل قاسية، ولو كانت تعلم هذا لما كانت قالتها على الإطلاق.

أما "وانا" فكانت تشعر بالندم هي الأخرى، كلماته أيقظتها من غفلة الحماس التي أصابتها، جعلتها تضع الأمور في نصابها الطبيعيّ، بالفعل هي ليست وحدها من يتألم ومن المفترض أنها تعرف هذا. كل فلسطينيّ يتألم بصورةٍ ما، كل فلسطينيّ تجرّع مرارة الفقد بطريقةٍ أحرقت قلبه وروحه، كل فلسطينيّ عانى الأمرّين ولا يزال يعاني. إذن كيف تجلد الناس بسياطٍ قاسية هكذا؟! كيف تعطي نفسها الحق بأن تقرر من تجربته أكثر قسوة ومن تجربته يمكن الشفاء منها سريعًا؟! من قال أن هناك فلسطينيًا يُشفى؟! لا، لا فلسطينيّ يمتثل للشفاء على الإطلاق، ويظل الجرح غائرًا تاركًا أثرًا لا يموت، أبدًا لا يموت.

أدركت فداحة ما فعلت، في كل مرةٍ تخطئ تتذكر كلمات غسان فتعود عمّا فعلت، تتذكر أن عليها أن تراعي كي يراعيها الآخرون، عليها أن تضع نفسها في موقفِ كل من تقابله فكلٌ منا بالفعل يقاتل بشراسة في معركةٍ نحن لا نعلم عنها شيئًا كما قال أفلاطون.

قررت أن تعتذر عمّا فعلت، لكن ستجعله أيضًا يعتذر عمّا فعل فقد أخطأ هو الآخر، نظرت إليه وعندما همّت بالكلام خرجت من كليهما في الوقت نفسه:

"أنا آسفة/ آسف".

ابتسم كلاهما ثم نظرا أرضًا فبدأت هي قائلة:

-"أعتذر. لم أقصد ما قلت، لم أقصد أي تجريح أو تقليل من فقدك. أعلم أنكَ بالطبع فقدت أُناسًا قريبين لقلبك كما حدث مع أغلب الفلسطينيين، وأعلم أنك تتألم كما أعلم أنني لست وحدي من فقد ولا من عاش التجربة حتى يحكم على الآخرين. أعتذر مرةً أخرى".

="لا عليكِ. أنا أيضًا أعتذر لعصبيّتي. لم أقصد ما فعلت، كان الأمر شاقًا عليّ. سامحيني".

-"لا عليك".

="الآن دعيني أخبركِ بكل ما تحتاجين من تفاصيل لتصبحين جاهزة".

*****

انتهى اليوم وظلت "وانا" تفكر طوال الليل في كل ما قاله غيث، أعادت كل ما قال على مسامعها مئات المرات تقريبًا، وموعدٌ واحد كان هو الأكثر ثباتًا في رأسها؛ لأن غيث أخبرها أن هذا الموعد على وجه التحديد لا يمكنها نسيانه.. موعد لقائها الأول مع المقاومة..

*****

٥

في صباح اليوم التالي استيقظت "وانا" من نومها وهي في غاية حماسها لموعدها الجلل الذي ستذهب إليه، توقعت أن يصيبها الخوف والارتباك، أو أن تؤلمها معدتها مثلما كان يصيبها وهي صغيرة وقت اختباراتها، لكن أكثر ما شعرت به في ذلك الوقت هو أن غسان يراقبها، ينظر إليها بعناية ويعرف إلى أين هي ذاهبة، لم تعرف تفسير لما شعرت، لم تعرف أهذا يعني أن ما تفعله هو الصواب أم لا؟، أهذا يعني أنه يقويها ويدعمها فيما تفعل أم يثنيها عن خطوتها تلك، لم تعلم ولم يعد في مقدورها الانتظار لتعلم، كانت قد اتخذت قرارها ولم يعد من الممكن أن تعود فيه، لن يمكنها أن تظهر بمظهر الطفلة التي تخشى الإبر فتركض بعيدًا عن الطبيب رغم شكواها من مرضها ورغبتها في الدواء لتمتثل للشفاء، لم تكن لتترك لغيث تلك الفرصة أن يخبرها أنه كان صادقًا في كل ما قال وأنها لن تحتمل مجرد التفكير في الأمر وستركض قبل أن تبدأ الساعة في العدّ، ولم تكن أبدًا، أبدًا لتخذل فلسطين، ولا أن تتقاعس عن أن تلتزم بوعدها وتنفذه على أكمل وجه، لقد قطعت وعدًا وعهدًا مع فلسطين.. مع

غزة.. مع مخيم الشاطئ.. ومع قريتها القديمة الفالوجة، تلك القرية التي ربما لم تنشأ فيها لكن كل ما أخبرها به والدها عنها وما أخبره والده به أيضًا جعلها تتخيّل كيف ستكون حياتها لو كان الوضع على ما هو عليه قبل ١٩٤٨ ولكانت ولدت هناك وعاشت حياتها كلها في ذلك البيت الذي لطالما صوّره جدها لوالدها، كانت الحياة لتصبح رائعة. كما أن والدها لايزال يحتفظ إلى الآن بمفتاح البيت الذي أعطاه إياه جدها، حاله كحال الكثيرين من أبناء القرية أملًا في العودة مرةً أخرى. لكن من يدري متى ستكون تلك العودة، فلقد مرت عقود وتلك العودة لم تقترب حتى، لكن من يدري ربما يكون الفرج قريبًا وأحدهم لا يدري.

رحلت في الصباح الباكر والبيت كله يغطّ في نومٍ عميق. أخبرها غيث أن مكان اللقاء بعيدٌ عن البحر وسيتعيّن عليهم السير مسافة ليست بالقليلة حتى الوصول، لهذا كلما تحركوا باكرًا كان أفضل وأسهل عليهم في العودة حتى لا يكونوا محط أنظار.

قابلت غيث في المكان المعتاد، عند الشاطئ ومن هناك بدأوا رحلتهم. كان الصمت مطبقًا عليهم كلٌ في عالمه وأفكاره حتى قطعته هي قائلة:

-"أهي المرة الأولى؟!"

فهم قصدها على الفور فَعَلَت ضحكته قائلًا:

="رهبةُ جلب شخصٍ جديد"

أجابته بكل تلقائية:

-"لا تقلق غيث، لن أحملك ذنب مقتلي إذا حدث هذا. لقد أتيت بمحض إرادتي وأنا في كامل قوايَ العقلية، بإمكانكَ كتابة هذا في وصيتي وألّا تحمل عبء أي شيء".

لا يعلم لمَ شعر بتلك الغصة في قلبه عندما قالت هذا، ربما لأنه شعر تجاهها بشعور المسئول، أو ربما رأى فيها أخته.. لا يعلم، لكنه أجابها بتلقائية:

="لا تقولي هذا "وانا". لن أسمح بأن يصيبكِ أي مكروه".

ثم نظر بعدها أرضًا لأنه يعلم أنه أخطأ في قوله هذا، ولم يكن يتعيّن عليه صياغة الجملة بتلك الطريقة حتى لا تفهمه بشكلٍ خاطئ. لكن "وانا" على الجانب الآخر لم تفهمه بشكلٍ خاطئٍ على الإطلاق، بل على العكس من ذلك فهي رأت فيه غسان، شعرت أن غسان هو من يحدثها ويخشى عليها ولن يسمح لأي مكروهٍ بأن يصيبها. كان كلٌ منهم لا يزال يحمل معه قطعةً من

روحه في الطريق يناجيها كلما اقترب، يخبرها أنه على مشارف الوصول وعلى مشارف تنفيذ الوعد، وربما.. يُطمئن نفسه بها.

*****

وصلوا في النهاية إلى المكان المحدد، وهناك كان في انتظارهم شابٌ قوي البنيان أكبر منهم سنًا. بمجرد أن رآهم حتى ابتسم وأقبل على غيث يسلّم عليه بحرارة ثم نظر إلى "وانا" مبتسمًا ابتسامة تشجيع وسار أمامهم إلى داخل مبنى صغير متواري عن الأنظار يتكون من ممرٍ واحد وفي نهايته غرفتين، لكنه يمتد إلى مسافةٍ طويلة في الداخل حتى ليصعب عليك تبين نهايته. وفي بداية سيرك فيه تشعر وكأنك في نفقٍ مظلم وستختنق إذا كنت معتادًا على الشمس والجلوس أمام البحر بالساعات مثل "وانا"، لكن لغيث لم يكن الأمر بهذه الصعوبة. وبالفعل ما إن مشت "وانا" لدقيقة حتى شعرت وكأن الهواء ينحسر عن رئتيها فتوقفت فجأة وباتت تتنفس بصعوبة حتى فزع غيث والشاب الآخر ولكنهم أدركوا الأمر على الفور ففُتحت بعض الأنوار فقط لتستطيع "وانا" الرؤية وانتشر الهواء بسرعة في المكان رغم اتساعه. وفي الواقع لم تكن "وانا" في حاجةٍ إلى الهواء بقدر ما كانت بحاجةٍ إلى الضوء أيضًا؛ فالظلام أشعرها بضيق المكان

وكأنه سيضيق عليها حتى تختلط عظامها معًا وتنكسر، لهذا ما إن أُنير المكان حتى سكنت في مكانها لتجد تلك العيون التي تنظر إليها بفزع وغيث يسألها: "أأنتِ بخير؟!!"

-"نعم أنا بخير"

="أتستطيعين النهوض وإكمال الطريق أم تريدين العودة؟"

-"بالطبع أريد أن أكمل الطريق، أيُ عودةٍ الآن. فقط أشعرني الظلام بالاختناق لكنني بخيرٍ الآن"

="حسنًا".

أكملوا طريقهم حتى وصلوا إلى إحدى الغرف القابعة في نهاية ذلك الممر الطويل، لكن تلك كانت مضيئة هذه المرة. دخلت "وانا" لتجد أربعة أشخاصٍ في الغرفة.. شابين وفتاتين.

بدأ الشاب الذي استقبلهم بالخارج الحديث قائلًا:

="حسنًا كما أخبرني غيث أن اسمكِ وانا. أنا يمان"

ثم بدأ يشير إلى الشباب واحدًا تلو الآخر يقوم بتعريفهم إلى "وانا" قائلًا:

="وهؤلاء هم رزان.. ريمان.. أحمد.. وخالد"

ثم أكمل حديثه قائلًا:

="وانا... كلُ واحدٍ في هذه الغرفة لديه سببٌ قويٌ للغاية لانضمامه، لكن هنا كلنا نتحد لأجل هدفنا الأسمى.. فلسطين.. بإمكانكِ اختيار كل الأسباب الممكنة لوجودكِ هنا اليوم لكن وجودنا في هذا المكان يعني أن فلسطين هي رقم واحد في قلب وعقل كل من في هذه الغرفة. لهذا يجب عليكِ البحث عن الطريقة الأمثل التي ستخدمينها بها وانا ".

*****

في طريق العودة وبعد أن جلسوا جميعًا معًا كلٌ يتحدث عن تجربته وانضمامه للمقاومة. وبعد أن تعرفت عليهم "وانا" أكثر ظل هذا السؤال يحيّرها حتى قررت أن تسأل عنه غيث فبادرت سريعًا وبدون أي مقدمات قائلة:

-"ما الذي قصده يمان بكلامه غيث؟"

="ماذا تقصدين؟!"

-"أنت تعلم ماذا أقصد".

="حسنًا هو يقصد أن تعرفين ما الذي سوف تنجحين في تقديمه إلى فلسطين "وانا". ولم يقصد أبدًا أن تقتلين نفسكِ في سبيلِ هذا، نحن لا نرتدي أحزمةً ناسفة لنفجّر أنفسنا في قلب معاقل

العدو "وانا". الأمر مختلفٌ تمامًا عن الصورة التي في مخيلتكِ عنه".

–"ماذا تقصد بهذا.. ؟!!"

="نحن مقاومة حقًا ولكن بشكلٍ مختلف؛ نحن نقاوم الانقسام الذي أصاب وطننا، نقاوم الإذعان واليأس الذي أصاب الكثيرين وجعلهم يتقبلون الأمر وكأنه مصيرهم المحتوم، نقاوم الضعف والتخاذل العربي، نقاوم ضعفنا حتى نستطيع أن نقاوم العدو ونهزمه. هل فهمتِي الآن؟".

–"نعم.. لكن.."

="أعرف أن لديكِ الكثير والكثير من الأسئلة لكن صدقيني عندما تأتين معنا لرؤية إحدى الأمور التي نقوم بها ستفهمين كل شيء".

تعجّبت "وانا" مما سمعت وظلت طوال الطريق تحاول استيعاب الأمر لكنها لم تستطع، كيف تكون تلك هي المقاومة؟! كيف لا يستخدمون الأسلحة والذخيرة ويقتلون كل ما يمكنهم قتله من الإسرائيليين؟! كيف تكون تلك هي طريقتهم للمقاومة!!

وصلوا إلى مكانهم المعتاد.. شاطئ البحر. ودّعها غيث ثم التفت إليها مرةً أخرى قائلًا:

="وانا، صدقيني أنا في هذا الأمر منذ سنوات ولم أشعر يومًا بالندم لانضمامي. ستُحدثين أثرًا أنا متيقنٌ من هذا. وفقط الضوء هو ما سيهزم الظلام وليس الظلام "وانا"، مثلما يهزم الحب وحده الكراهية فلا يمكن للكراهية أبدًا أن تفعل هذا. معكِ كل الوقت للتفكير في الأمر وأخذ قرارِكِ بهدوء. وسأكون هنا غدًا في نفس المكان ممسكًا بصنارة الصيد الخاصةِ بي مترنمًا بأبيات تميم البرغوثي منتظرًا أن تفعلي الصواب. إلى اللقاء وانا".

*****

٦

ذهب غيث في اليوم التالي لمكانهما المعتاد وهو لأول مرة منذ لقائه بوانا يشعر بالتردد. مذ رآها أول مرة وهو يكاد يجزم أنه كان يقرأ أفكارها، كان متيقنًا كثيرًا من قراراتها وكأنه يعلم كل قرارٍ ستأخذه، لكنه اليوم متردد، يشعر بأنه لا يمكنه الجزم بالخطوة أو القرار الذي ستتخذه.

بحتمية الأمر ومنطقيته تلك الفتاة في طور الحماس الذي يأتي في البدايات، تود الانتقام، تود الأخذ بثأرها وثأر أخيها وكل فلسطين، لن ترضى بأقل من هذا، لن ترضى بالحلول طويلة الأجل التي لن تحصل على نتيجتها في الوقت الحالي، لن يرتاح قلبها أو تستطيع النوم قريرة العين إلا عندما تجعلهم يتجرعون نفس المرارة التي شعرتها بفقد أخيها. لكنه يعلم في قرارة نفسه أيضًا أن تلك الفتاة لن تستطيع فعل هذا، لن يُمكّنها قلبها من أن تقتل بدمٍ بارد، لن يكون الأمر بهذه السهولة على فتاة تعودت القوة والصمود وألّا تنحني، تعودت أن تتمرّد على كل القيود وتكسرها إن كانت خاطئة ومُقيدة لحريتها، تعودت أن تواجه عدوها في عينيه وتخرجه صاغرًا وليس محمولًا على محفّة، هي

ليست بهذا الضعف حتى تختفي خلف الأسلحة والقنابل وتحتمي بهم، وهي تعلم في قرارة نفسها أنها ليست من يفترض أن يخاف ويخشى الطرف الآخر، بل تتيقن أنها هي الأقوى وأن عدوها هو من يخشاها لهذا يلجأ إلى تلك الحيل الدنيئة، يتخلص منها بتلك الطريقة لأنه لن يستطيع التخلص منها بأخرى. لهذا ظل غيث وعلى الرغم من كل أفكاره تلك محتفظًا في ركنٍ ما في قلبه باحتمالية أن تحضر "وانا" وتوافق على الانضمام.

وصل إلى المكان فإذا بها تجلس هادئة وديعة كأن السلام قد حلّ على كل فلسطين لتجلس هي بهذا الهدوء وتلك الوداعة. وأدرك للمرةِ الأولى أن السلام قد حلّ بالفعل ولكن ليس على فلسطين. اقترب منها ليجدها ممسكةً في يديها بصنارة وتنتظر نصيبها من الأسماك التي سيمنحها لها البحر، وسمعها تتمتم بشيءٍ ما لم يتبينه في البداية، لكن عندما اقترب استطاع تبينه بوضوح..

"من كان ذا حلمٍ وطال به المدى

فليحمه

وليحمِ أيضًا نفسه

من حلمِهِ

أيّا مَنْسِيْ

فالحلم يكبر أدهُرًا
في يومه
ويزيد دَيْنُ الدهر حتى يستحيل
فترى ابن آدم
راضيًا من أي شيءٍ بالقليل
لا تقبلوا بالقبح يا أهلي مكافأة
على الصبر الجميل
فالصبر طول العمر خيرٌ
من خلاص الكاذب
ما فيه من صفة الخلاص سوى اسمه"

تميم البرغوثي

انتهت من الإلقاء ثم التفتت إليه قائلة: "أوصلكَ قراري الآن؟؟"
لم يعرف متى تبيّنت وجوده، أو ربما هي تعلم منذ الكثير وهو لم يلحظ لأنه كان في قمة تركيزه فيما تقول. رفع يديه مصفقًا لها بحرارة وهو يقول:
="لا أعرف ما القصة مع تميم البرغوثي، لكنكِ كنتِ رائعة، ألقيتِها ببراعة".

-"حسنًا غيث، أنا موافقة على الانضمام. لن أرد الأمر بتلك الطريقة ولن آخذ ثأري هكذا، بل سآخذه بطريقةٍ أخرى وسأحقق حلمي مهما كلفني الأمر. وسأحرر الأقصى وسأبذل قصارى جهدي في ذلك ما دام فيّ رمقٌ للحياة".

نظر إليها غيث بإعجاب، أو ربما سعادة من أن ذلك الجزء الصغير الذي احتفظ به في قلبه لموافقتها قد أصاب وها هي تخبره بقرارها بالانضمام، لم يدرِ كيف يفسر شعوره لكنه كان سعيدًا بحق.

="وانا"..

-"نعم غيث"..

="أتعلمين؟؟ لم أتصور يومًا أن أجد شخصًا مثلكِ واثقًا هكذا من كل خطواته، وكأنكِ متيقنة مائة بالمائة من أنكِ ستصلين وتحررين الأقصى ومن أنكِ ستنجحين فيما تقومين به".

-"أنا لستُ هذا ولا ذاك صدقني. أنا فقط مؤمنة تمامًا بقضيتي وبصدقها، وبأن هناك عدلًا في هذا العالم حتى لو تأخر تحقيقه علينا قليلًا، وبأن الفرج قريب وهو فقط يتطلّب قليلًا من الانتظار والثقة والإيمان بعد. صدقني لو كنتَ قابلت أخي غسان لم تكن لتراني هكذا أبدًا".

="أتدرين، أصبحت تأتيني رغبةٌ عارمة في لقاء غسان، وأتمنى لو كنت التقيته وتحدثت معه. أنا متأكدٌ من أنه شخصٌ عظيم؛ فما منحكِ إياه حقًا بعظيم وانا ".

نظر كلاهما إلى الشاطئ أمامهما وكلٌ غارقٌ في أفكاره، فيما يخبئ المستقبل، في عائلته، في إمكانية تحقيق حلم تحرير الأقصى الذي لازال واقعًا ملموسًا لم يغادر الكثيرين منذ عقود رغم مغادرته آخرين. وربما في شيءٍ آخر يلامس القلوب لمرّته الأولى ويحتاج بالفعل إلى تفكيرٍ أيضًا، فما يساعدهم على المقاومة والاستمرار إلى الآن هو ذلك الشيء الذي لازالت فلسطين تغمر مواطنيها به ولم تضنّ عليهم به يومًا.

وعندما وصل التفكير إلى تلك المرحلة تلاقت الأعين كأنها كانت في سفرٍ طويل وقد وصلت محطتها الأخيرة للتو، فكان غيث هو من قطع هذا التواصل البصريّ الحائر بقوله: "أتريدين معرفة جدول مواعيدكِ للغد؟؟"

عادت "وانا" للنظر للشاطئِ أمامها على الفور قائلة:

– "بالطبع أريد".

="حسنًا، من المفترض أنكِ ستذهبين غدًا لتعرفين دور كلٍ منا بالتحديد وأين يقوم بهذا الدور لتستطيعين أخذ قراركِ في اختيار دوركِ الذي ستقومين به".

-"حسنًا، أبإمكانكَ إكمال الصيد بدلًا عني، فعليّ الذهاب للمنزل على الفور".

="يا آنسة ليس بإمكانكِ ترك الصيد هكذا والرحيل. يجب عليكِ إنهاء صيدكِ أولًا. لمَ إذن بقيتِ كل هذا الوقت، من يحب الصيد لا يفعل هذا على الإطلاق".

التفتت له "وانا" وقد ارتسمت ابتسامة هادئة على محياها وهي تجيب:

-"ومن قال أنني أحبه أصلًا"

ثم التفتت مرةً أخرى ورحلت. فنظر غيث أمامه إلى البحر وهو يبتسم ثم ما لبثت أن تحركت الصنارة في يديه بقوة معلنةً عن أولى عطايا البحر. كانت واحدة من تلك الأسماك التي كان يرغب غيث في اقتنائها وكانت رائعة، فألوانها التي تمنحه هدوءً لا مثيل له وتمثل له السلام في أسمى صوره جعلت غيث ينظر إلى الطريق الذي اختفت فيه "وانا" منذ قليل ويبتسم مرةً أخرى ثم يعود لإكمال صيده بشعورٍ مختلفٍ على الإطلاق.

٧

استيقظت "وانا" باكرًا في اليوم التالي وكذلك غيث. اليوم يهمها كثيرًا لتتعرف أكثر على عمل هذه المقاومة، تود لو تقترب أكثر حتى تتعرف على أدق وأصغر التفاصيل، وذهابها للأماكن التي يعملون بها جميعًا هي فرصتها لهذا هي في غاية حماسها. غيث أيضًا كان متحمسًا، بات يشعر بأنه يقترب أكثر، وبأن عليه أن يكمل تمامًا كما بدأ دون أن يدع مجالًا للشك أو التردد، عليهم إكمال ما بدأوه بنفس الطاقة والحماس.

التقى بوانا في مكانهما المعتاد.. شاطئ البحر، ثم في طريقهما للمكان الأول التقيا بيمان الذي سار معهما حتى وصلوا جميعًا إلى مشغلٍ للخياطة كان هو الأكبر في غزة، والتقوا برزان داخله فرزان هي المسئولة الكبرى عن أعمال المشغل.

بدأت رزان تشرح لهم ما يحدث في المشغل وكيف يفيد السيدات والفتيات ويمثّل لهن مصدرًا جيدًا للرزق. وبعد أن أنهت رزان حديثها عن المشغل نظرت "وانا" بحيرة إلى غيث، ففهم من نظرتها أنها تتساءل عن الأمر.. ما علاقة هذا بعمل المقاومة؟! أغمض عينيه إليها بمعنى صبرًا فستعرفين كل شيء.

ثم بعدها تحركا مع يمان إلى المدرسة التي تعمل بها ريمان، ثم العيادة التي يعمل بها أحمد، ثم مصلحة الكهرباء التي يعمل بها خالد، ثم مخزن المؤن الذي يعمل به يمان. وهنا تحدث يمان قليلًا موضحًا لـ"وانا" أن مخزن المؤن هذا تابعٌ لمنظمة الأمم المتحدة لشئون اللاجئين، هنا تأتي إمدادات الدول المختلفة وتحرص منظمة الأمم المتحدة على أن يغطي احتياجات اللاجئين بالمخيم من الطعام والشراب.

ثم وأخيرًا مركز الصيد الذي يعمل به غيث، لا تعلم لمَ تفاجأت عندما علمت بأن دوره يدور حول الصيد، مع أن كل المرات التي التقت به كانت على شاطئ البحر وكان ممسكًا بصنارة الصيد، لهذا فإنه أمرٌ بديهيّ أن يكون هذا هو دوره أيضًا. لكن ربما كان سبب دهشتها هو كونه قادرًا على فعل ما يحب وقت مقاومته، أن يقاوم من خلال ما يحب وليس ما يكره.

على الرغم من عدم معرفتها القوية به فهي فقط بعض المرات التي يمكن عدّها على أصابع اليد إلّا أنها تعلم في قرارة نفسها أن غيث ليس بالشخص الذي من الممكن أن يلجأ إلى القتل كوسيلة، هو يشبه غسان كثيرًا، ربما هذا هو ما جذبها إليه. شعرت وكأنه يمتلك ذلك الحضور المهيب لغسان الذي كان

يجذب إليه كل من حوله، الذي كان يفرض جاذبيته على الجميع ويجبرهم على الالتفات إليه والاستماع لحديثه. لقد كان محقًا في رغبته لقاء غسان، فمن لا يريد؟!!

*****

بعد أن أنهَّيا جولتهما مع يمان اتجهوا إلى شاطئ البحر، وهناك كان بانتظارهم رزان، ريمان، أحمد وخالد.

بدأ يمان الحديث قائلًا:

="كان هامًا للغاية أن تتعرفي على أدوارنا المختلفة وانا، عليكِ أن تعرفي دورنا في هذا المجتمع الصغير.. مجتمع مخيم الشاطئ. ربما تأثيرنا محدود ليشمل هذا النطاق فقط، لكنه فعّال ومؤثر. ونتمنى أن يتجاوز هذا الحد ليشمل فلسطين كلها حتى نحقق هدفنا.. تحرير الأقصى. نحن أخذنا تلك الأدوار لأنها الأكثر ثقلًا هنا والأكثر تأثيرًا أيضًا من خلال حلقة الوصل التي نحاول العمل عليها منذ سنوات لكن كان الأمر يبوء بالفشل، حلقة الوصل هي الأمم المتحدة. نحن نعمل على لجنة متابعة الأمم المتحدة التي تأتي إلى هنا لتطمئن على الأوضاع، بالطبع مخزن المؤن هو تابعٌ لها، لكن باقي الأدوار مؤثرة في مخيم الشاطئ لهذا تمر عليها اللجنة لتتعرف أكثر على تطور

الأوضاع لتكتب تقاريرها التي تُعرض فيما بعد في جلسات الجمعية العامة ومجلس الأمن. لهذا حاولنا لسنوات أن تكون أدوارنا حقًا قيّمة في هذه الأماكن وألّا تكون بسيطة بل مؤثرة، وإذا أرادوا أحدًا للحديث معه عن هذه الأمور فبإمكانهم اللجوء إلينا.

نحن نؤمن بشيءٍ هامٍ للغاية؛ أن القتل ربما يكون خيار في وقتٍ ما لكنه ليس بالخيار الأول. هو ذلك الخيار الذي سنلجأ إليه عندما نضطر لهذا. نحن لا نهدف فقط إلى إخراج العدو صاغرًا من أرضنا، بل إلى تعليم كل فلسطينيّ كيف يفعل هذا. نحن نريد إعادة وحدة الصف الفلسطينيّ مرةً أخرى، أن يكون هو قادرٌ كامل المقدرة على أن يفعل هذا بنفسه لا أن ينتظر المقاومة أن تؤتي ثمارها. يدًا بيد مع المقاومة سيحدث التغيير الذي نرجو إن شاء الله.. "

صمت قليلًا ثم عاد ليردف:

="وهناك شيءٌ آخر غاية في الأهمية وانا، لقد قررنا منذ بداية هذه المقاومة أننا لن ننظر إلى تحقيق أهدافنا على المدى القريب. نحن ندرك تمام الإدراك أن الأمر يستدعي وقتًا ولو كنا تعجّلنا النتيجة لانهار هذا الكيان منذ سنوات. نحن نحاول قدر

استطاعتنا ثم نصبر لنرى نتيجة ما فعلنا دون عجلة. فكل شيءٍ يأخذ وقتًا، وعملنا هذا يحتاج كل الاحتياج للصبر وبأقصى درجاته. أفهمتني وانا؟"

–"نعم يمان فهمت"

*****

٨

رحل الجميع تاركين "وانا" وغيث بمفردهما. شعرت "وانا" بالامتنان لكلمات يمان، لا تعلم لمَ اخترقتها كلمات يمان حتى وصلت إلى أعماقها، هؤلاء الشباب بهم طاقة غير عادية للتغيير وفي نفس الوقت قادرون على الصبر والتروّي وعدم إفساد الأمر بالعجلة.

كانت تود معرفة قصة كل واحدٍ منهم وكانت البداية عند يمان بالطبع، فما إن رحل الجميع حتى التفتت إلى غيث وبدون أي مقدمات ألقت عليه السؤال:

-"ما قصة يمان؟".

تعجب غيث من سؤالها فابتسم وهو يجيبها بسؤالٍ آخر:

="أيجب أن يكون لكل شخصٍ قصة؟!".

أدارت رأسها عنه بضجرٍ مصطنع وهي تقول:

-"أيجب أن ترد على سؤالي بسؤال، أليس لديكَ إجابة!!".

="بلى بالطبع لديّ، لكن أيمكنكِ أن تنظري إليّ أرجوكِ فعدم الاهتمام يقتلني".

اندهشت "وانا" من جملته فنظرت إليه بتعجب وهي تجيب:

–"أي عدم اهتمام!! ماذا بك!!".

تصنّع غيث الحزن وبرم شفتيه كالأطفال وهو يجيبها:

="نعم، لقد أدرتِ وجهكِ عني في ضجر، ثم وجهتي لي سؤالكِ دون أن تنظري إلى عينيّ، هذا عدم اهتمام، يجب عليكِ أن تنظري إلى عينيّ الشخص الذي تحدثيه يا فتاة".

ضغطت "وانا" على أسنانها وهي تقول:

–"توقف عن مناداتي فتاة، فأنا لست بفتاة".

ضحك عاليًا وهو يجيبها:

="حسنًا، حسنًا لا تستائي. أنتِ لستِ بفتاة، ماذا تريدين إذًا؟!".

–"غيث، توقف عن هذا وأجبني وإلا سأرحل صدقني".

="لا لا ترحلي، أنا آسف. حسنًا سأقص عليكِ قصة يمان..

يمان هو الابن الوحيد لوالديه، كان يساعد والده منذ صغره في عمله في إصلاح السيارات، وفي نهار يومٍ ما مرت سيارةٌ للعدو من أمام ورشة والده، وقامت بإلقاء قنبلة على دلوٍ للبنزين فاشتعلت النار في كل مكان حتى كانت السيارات بالكاد تُرى من النيران، ركض يمان وركض والده محاولين الهرب من النيران. استطاع يمان الخروج لكن والده لم يستطع، ظل ينادي عليه

لكن بلا جدوى. وعندما توقفت النيران واستطاع يمان دخول الورشة التي كانت قد تفحّمت، ظل يبحث وينادي على والده لكن بلا جدوى، حتى وجده في ركنٍ من الأركان منزوٍ على نفسه وكأنه كان يحاول إطفاء جسده الذي اشتعلت به النيران لكن لم يستطع. كان كل شيءٍ قد انتهى.. والده ومصدر قُوُتهم الوحيد.

كان المخيم هو ملجؤه الوحيد هو ووالدته، استطاعا الاستمرار حتى وصل إلى سنٍ مناسبة للعمل كي يجلب قوت اليوم لوالدته ولا يعتمد على المساعدات. ومن وقتها تولدت لديه تلك الرغبة أن يمنح والدته حياةً جيدة وأن يجلب حق والده. لكن لن يفعل مثلما فعلوا ويفعلون دومًا، بل سيمحو كل هذا اليأس والخوف والتيه الذي أصبحت فلسطين تعيش فيه. سيجلب لها حقها وسيجعلها هي تساعده أيضًا. وهذه هي قصة يمان كاملة".

أنهى غيث كلماته متأثرًا ثم نظر إلى "وانا" التي كانت قد تأثرت هي الأخرى.

ثم نظرت لغيث قائلة:

–"كل من ينضم إلى المقاومة يكون فاقدًا لقطعةٍ من روحه، ألا ترى هذا؟!"

="ليس الجميع يا "وانا" قد فقدوا، فهناك رزان على سبيل المثال، هي لم تفقد شخصًا لكنها تشعر بأنها فقدت وطنها حتى ولو كانت تحيا فيه إلى الآن. يختلف فقدنا للأشخاص لكن أظن أن فقدنا للوطن هو السمة المشتركة بيننا جميعًا".

–"أنت مخطئ غيث. نحن لم نفقد فلسطين على الإطلاق ولن نسمح لهذا بأن يحدث. أتدري، لقد علّمني غسان أنه حتى الخروج من الوطن لا يُعد فقدانًا؛ الوطن بداخلنا مهما حاربتنا الظروف، الوطن في أسمائنا التي ترمز لفلسطين، الوطن في لهجتنا التي تنادي بالأقصى وحريته، الوطن في مقاومتنا التي لا ملجأ لها إلا هنا، الوطن هو حيفا وعكا وغزة، الوطن هو محمود درويش وتميم البرغوثي وإبراهيم نصر الله، الوطن هو القدس ومسجد بغداد ومخيم الشاطئ، الوطن هو قبة الصخرة ومحمد الدرة. الوطن لن يموت أبدًا ولن نفقده مهما حاولوا هذا غيث، أبدًا لن نفقده".

نظر إليها غيث بإعجاب وهو يقول:

="لا أعلم كم مرةً عليّ أن أخبركِ فيها برغبتي العارمة في لقاء غسان، وكم أنني ممتنٌ له لأنه كان سببًا في انضمامكِ للمقاومة وفي أن أراكي يا وانا".

شعرت "وانا" بالخجل لوقع كلماته فوجّهت ناظريها إلى البحر هربًا من عينيّ غيث التي كانت تراقبها عن كثب.
همّ غيث بأن يتحدث لولا أن قاطعته "وانا" معلنةً نهاية الحوار وبأنها سترحل. وبالفعل رحلت "وانا" تاركةً غيث في دهشته وعجزه عمّا كان سيقول بسبب رحيلها.

كانت "وانا" تعلم أنه ليس بالأحرى كان غيث ليعترف تلك اللحظة بشيءٍ ما، لكنها شعرت بحاجتها للهرب، لا تقوى على مواجهته وهي تعلم في قرارة نفسها بأنها منجذبةٌ إليه. هو به الكثير من غسان، تشعر أنهما معًا يكملان صورة أخيها الراحل في عقلها وحياتها، تشعر بأنه يتجسد أمامها عندما تتحدث مع غيث وتعرف أكثر عن نظرته للحياة وخاصةً للمقاومة. كما تعرف أيضًا بأنها لا يمكنها السماح للأمر بأن يتطور أكثر في قلبها، هي تعلم كيف تنتهي الأمور دومًا، تعلم ما الذي من الممكن أن يحدث ولا يمكنها تحمل فقدًا آخر.

رحيل غسان كان بمثابة آخر مسمارٍ في نعش تعلقها بالآخرين وقربها منهم، باتت تدرك أن أيًا يكن القرب سيؤول إلى نهايةٍ

ليست بالمستحبة، لهذا لا يمكنها السماح لقلبها بهذا ولا أن تمر بكل هذه المراحل وتحاول التعافي في النهاية.

هي لم تتعافَ بعد من آلامها المبرحة لفقدان غسان. لن تبدأ هذا كله من جديد، لا يمكنها.

*****

٩

استيقظت "وانا" في الصباح الباكر وهي تشعر بأن عليها أن تفعل أمرًا هامًا؛ عليها أن تخبر الجميع بقرارها وبالدور الذي ستأخذه. ظلت تفكر طوال الليل حتى غلبها النعاس ثم لم يرحمها شعور الرغبة في البوح سريعًا بقرارها وبمعرفة الخطوة التالية فمنعها من النوم جيدًا، لهذا قررت النهوض والذهاب للشاطئ وانتظار غيث لتخبره بقرارها.

ذهبت إلى الشاطئ بالفعل وهناك وجدت غيث جالسًا في مكانهما المعتاد، تعجبت من وجوده فالساعة لم تصل السابعة بعد.. متى أتى هذا؟!!

توجهت إليه ثم ما إن رآها غيث حتى نظر أرضًا ساحبًا نفسًا عميقًا إلى صدره ثم نظر إليها مرةً أخرى محاوِلًا الابتسام قدر الإمكان لكن خرجت ابتسامته مصطنعة بطريقةٍ لم تخفَ على "وانا" أبدًا، نظرت إليه مشدوهة وهي تقول بتوتر:

-"ماذا بكَ غيث؟!! أأنت بخير!! ما الذي أتى بكَ باكرًا هكذا!!".

="أنا بخير "وانا". كيف حالك؟"

-"أأنتَ من يسألني كيف حالي!! أنا بخير غيث!! أنتَ ماذا بك!!"

="أنا بخيرٍ أيضًا، كلُ شيءٍ على ما يرام. هل نمتي جيدًا ليلة أمس؟"

أغلقت عينيها نصف انغلاقةٍ ثم وبنفاذ صبرٍ قالت:

-"غيييث"

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال لها:

="حسنًا "وانا".. أنا لم آتِ باكرًا اليوم.. في الواقع لم أرحل منذ تركتِني أمس.. أفكر كثيرًا منذ البارحة.. عليّ الوصول لقرار في أمرٍ ما.. ووجودكِ هنا الآن بمثابة الإشارة التي كنت أنتظرها.. لهذا عليّ أن أتحدث وأقول شيئًا.. أعلم هذا..".

لم تفهم "وانا" شيئًا من جمله المتقطعة فقاطعته قائلة:

-"غيث اهدأ. أنا حقًا لا أفهم شيئًا، هل يمكنكَ قول جملة واحدة مفيدة؟؟".

نظر إليها بتوسل قائلًا:

="هل يمكنني الاستعانة بأحدهم رجاءً؟؟"

نظرت إليه بتعجب ثم قالت:

-"حسنًا"

أخذ نفسًا عميقًا مرةً أخرى ثم نظر إليها لثوانٍ قبل أن يقول:
="إنني يا "وانا" أحيانًا لا أجد ما أقوله أمام عينيكِ، فأتذكر قول محمد المقرن:
لي ألفُ بيتٍ بالفصيحِ أجدْتُها
لكنني في حبها أتلعثمُ".

صمت غيث بعد جملته هذه وكأن هذا هو كل ما استطاع لسانه أن يسعفه بقوله، وكأن كل الكلمات قد هربت من حلقه ولم يستطع أن يأتي بالمزيد. ثم نظر إلى عينيها يستجديها أن تساعده وتمنحه القليل مما نضب عليه لسانه به.

لكن "وانا" كانت في مكانٍ آخر، كانت البارحة تقنع نفسها مرارًا وتكرارًا أنها لن تسمح لهذا بأن يحدث، ولن تترك الأمر يتطور في قلبها. واستطاعت البارحة أن توقف الأمر وألا تدعه يحدث لكنها اليوم تقف أمام منطقه صامتة، وكأن كلماتها هي الأخرى قررت الرحيل إلى حيث رحلت كلمات غيث. لم تعرف بمَ تجيبه فقلبها كان به حروبٌ أكبر من حروب العالمِ أجمع. والرصاصات التي كانت تخترق مشاعرها وترديها صريعة في قلبها لم تكن تنتهي، وهي بين شقيّ الرحى من أن تستجيب لسلطان قلبها الذي يخبرها أن الوقت قد حان، أو سطوة عقلها الذي يخبرها

أن النهاية محتومة. فنظرت إلى غيث بعجزٍ مماثل ألا ينتظر منها جوابًا فالأمر حقًا سيأخذ وقتًا، فهي لديها حربٌ وعليها أن تواجهها بمفردها أولًا. لكنها في الوقت ذاته كانت تعلم أنه ليس بذنبه على الإطلاق وأن صمتها أسوأ بكثير من رفضها، وأن عليها أن تستجدي كلماتها كي تسعفها الآن وتريح ذلك الذي ينتظر أمامها بفارغ الصبر كلمةً واحدة تكون بمثابة تعويضًا له على الليلة الماضية التي لم ينم فيها ولم يذق للراحةِ طعمًا.

وكأن كلماتها قررت أن تستجيب وتمنحها ما طلبت، فوجدت نفسها تنظر إلى عينيه بعمقٍ لتجيبه:

-"غيث، أنت شخصٌ رائع لكنني أريدكَ أن تتفهّمني. ما قلته للتو دمّر أي منطقٍ كنت سأرفض به مشاعرك هذه لهذا لا يمكنني الرفض على الإطلاق. لكنني الآن في حربٍ صدقني، حربٍ عليّ خوضها وحدي حتى أمنحك جوابًا لا رجعة فيه، جوابًا أنا أتمنى حقًا أن أصل إليه. أتفهمني غيث؟".

أومأ غيث متفهمًا وهو يجيب:

="لو كنتي رفضتي رفضًا قاطعًا كنتي لتكسرين قلبي وانا، لكنكِ منحتني فرصةً أشكركِ عليها. لكن إذا لم أحصل على إجابة مرضية في النهاية بعد كل هذا الانتظار سأنهار، أنا أحذركِ!!".

نظرت إليه بسخرية وقالت:

-"أتدري أنكَ ممثلٌ فاشلٌ للغاية، لم تؤثر بي كلماتك لثانية واحدة حتى. حقًا أنا لا أجاملك".

نظر إليها بحزنٍ مصطنعٍ وقال:

="أنتِ قاسية، تمامًا كاَسمكِ".

-"أنا لست قاسية هذا أولًا. ثانيًا معنى اسمي ليس بالقاسية، معناه الشابة الفتية، والمعنى هذا يختلف عن ذاك اختلاف الشمس والقمر يا سيد".

نظر إليها بتعجب قائلًا:

="يا إلهي، لم يعجبكِ أنني لقبتكِ بالفتاة من قبل والآن تنعتينني بالسيد أي تجعلينني شخصًا غريبًا تمامًا. ولم يعجبكِ أنكِ قاسية، في الواقع أنتِ متسلّطة".

نظرت إليه رافعةً كتفيها بلا مبالاة وهي تقول:

-"ربما. بإمكانكَ التوقف عن الحديث معي أو الرحيل إذا كنت تراني متسلّطة".

نظر إلى عينيها بجديةٍ وقال:

="أبدًا، هذا لن يحدث أبدًا. سأنتظركِ ما حييت وانا، حتى تحترق النجوم وتفنى العوالم صدقيني".

صمتت "وانا" قليلًا لا تعرف بمَ ترد عليه وهو للمرةِ الثانية يؤثر عليها بمنطقه، وبكلمات أحمد خالد توفيق. هذا الشاب يبهرها؛ أولًا تميم البرغوثي، ثم محمد المقرن والآن أحمد خالد توفيق. أيريد قتلها!!

-"حسنًا ربما أنت تريد أن تؤثر عليّ وفي الواقع إذا اتجهت للأدب فستفعل هذا حقًا، لهذا توقف عما تفعله حتى أستطيع أن آخذ قراري بصورةٍ صحيحة".

نظر إليها مبتسمًا ابتسامةً رائعة وهو يقول:

="فإذا وقفتُ أمام حسنكِ صامتًا.. فالصمتُ في حرمِ الجمالِ جمال".

احمرّت وجنتاها خجلًا وهي تنهض مبتعدةً عنه وهي تقول بصوتٍ عالٍ كي يسمعها:

-"حسنًا غيث، لقد حكمتَ على قراري بالإعدام. لقد خرج الأمرُ عن سيطرتي آسفة".

ثم التفتت راحلة بالفعل وهي تبتسم وتشعر بشعورٍ مختلفٍ.

أما غيث فالتفت للبحر هو الآخر وهو يبتسم مُغمضًا عينيه في ارتياح..

*****

في اليوم التالي استيقظت "وانا" باكرًا لتستطيع الحديث مع عائلتها قبل الرحيل وخاصةً حتى تلحق بوالدها قبل الذهاب إلى عمله. أخبرتهم بقرارها وبما وصل إليه أمر المقاومة إلى الآن ثم رحلت متجهةً إلى مخزن المؤن حيث يعمل يمان حتى تخبره بقرارها هو الآخر.

وهناك وجدتهم جميعًا في انتظارها، أخذت نفسًا عميقًا لتستعيد رباطة جأشها وتحافظ على ثباتها حتى تستطيع إيصال فكرتها بصورةٍ ملائمة ثم قالت:

-"حسنًا جميعًا، أعتقد أن دوري سيكون مختلفًا قليلًا عن أدواركم، لكنه بسيطٌ للغاية في رأيي.

كم تبقى لدينا قبل مجيء لجنة المتابعة، أسبوعين أليس كذلك!! حسنًا إذن، لا أريد منهما إلّا أربعة أيام؛ يومي عطلة ويومين آخرين بعد أن يفرغ الناس من أعمالهم. على الناس أن تعرف أكثر عن تاريخ فلسطين وخاصةً الكبار لا الصغار فقط. وأتمنى أن تستطيعين فعل هذا مع الصغار أيضًا ريمان في هذه الفترة، يجب على كل فلسطينيّ في مخيم الشاطئ كبيرًا كان أو صغيرًا أن يعرف أكثر عن تاريخ كل صخرةٍ في فلسطين، كل تفصيلةٍ أيًا كانت. عليهم أن يشعروا بأنهم حقًا ينتمون إليها، عليهم أن

ينظروا إليها بصورةٍ مختلفةٍ عن تلك التي تغطيها الدماء والجثث والنحيب، عليهم أن يروا جمال الأقصى وطُهر فلسطين، عليهم أن يروا هذا ويرغبوا في استعادته حتى يصبح معنا جيشٌ آخر يحارب من أجل القضية.. جيش فلسطين بأكمله. أتفهمون قصدي؟؟".

ظهرت الابتسامة على محيا الجميع وكان الرد من نصيب ريمان التي قالت:

-"أنتِ محقة وانا، أشعر أن الأطفال في المدرسة بحاجةٍ إلى هذا بصورةٍ أكبر. ربما بإمكاني تخصيص وقتٍ في حصصهم المدرسية الخاصةِ بي لهذا الأمر. سيكون أمرًا رائعًا".

ثم وجّه يمان حديثه إلى "وانا" قائلًا:

="حسنًا "وانا" فكرتكِ رائعة بحق إذا تم تنفيذها بصورةٍ صحيحة، لكن أخبريني كيف تنتوين القيام بهذا؟؟"

تشجعت "وانا" لإكمال ما في جعبتها من أفكار بعد أن لمحت تشجيع الجميع فقالت:

-"كما قلت لكم أريد فقط أربعة أيام، وربما بإمكاننا جمع الناس في مكاننا حتى لا يشك أحد بالأمر ويبحث فيما نفعل. ماذا ترون؟؟"

ردّت رزان قائلة:

–أنا يمكنني إحضار ما تريدين من المقاعد ليجلس الحضور عليها من مشغل الخياطة طالما أن الأمر سيكون في يوم عطلة وبعد انتهاء العمل".

وأردف خالد قائلًا:

="وأنا بإمكاني مساعدتكِ في أمر شاشة العرض وكل أمور الكهرباء التي ستحتاجين إليها ليكون كلُ شيءٍ جاهزًا وقتها"

ولم يتوانَ يمان لحظة في عرض مساعدته بإحضار القليل من الأطعمة والمشروبات للحضور عندما تأتي.

ثم نظرت "وانا" إلى أحمد وغيث قائلة:

–"وأنتما سيكون لكما دورٌ في المساعدة بالطبع، فبإمكانكما مساعدتي في تجهيز العرض للحضور عندما يأتون. وبإمكانكَ غيث أن تجهز لنا وجبة سمكٍ شهية في أحد الأيام الأربعة".

نظر إليها أحمد وغيث بابتسامة وإيماءة من رأسيهما دليلًا على الموافقة.

جلسوا معًا لساعتين إضافيتين للاتفاق على كل شيء لأن اليوم الأول كان هو العطلة وكان سيأتي بعد يومين، لهذا كانت الترتيبات على قدمٍ وساق فهم سيحاولون جمع ما يستطيعون من

الأفراد لليوم القادم وإذا نجح الأمر فإن من حضر سيقوم بإبلاغ من لم يحضر حتى يحضر كل مخيم الشاطئ. وبالفعل اتفقوا على كل شيء ثم رحل كلٌ منهم إلى عمله وذهبت "وانا" هي الأخرى لوالدها أولًا ثم والدتها ليقومون بمساعدتها في جمع ما يستطيعون من الرجال والنساء. ثم ما كان ينتظرها بعد العودة أكبر، فكان عليها أن تقوم بأبحاثٍ مطوّلة حتى تستطيع اختيار المواضيع التي ستتحدث عنها في هذه الأيام الأربعة حتى تستطيع إيصال رسالتها تمامًا كما تريد، فهذه الأيام لن تكفي بالطبع لكل تاريخ فلسطين لهذا كان دورها صعبًا لتحدد ما الذي تحتاجه هذه الأيام الأربعة أكثر حتى غفت من فرط الإرهاق.

*****

١٠

جاء اليوم الأول وكانت "وانا" قد قررت ماذا ستفعل، وكان الحضور قد اجتمع بعددٍ مقبول بالنسبةِ للمرةِ الأولى، وكان كل شيءٍ معدًا تمامًا كما أرادوا. ثم بدأ العرض بكلمةٍ لـ "وانا" قائلة:

–"في البداية أود أن أرحب بكم جميعًا على مجيئكم هنا اليوم. إنه لشرفٌ كبيرٌ لنا أن يأتي هذا العدد بالنسبةِ لأولِ يوم. أعتقد أنكم لديكم حتى ولو فكرة مبدئية عما سنفعله هنا وأتمنى أن ننجح معًا فيه.

في البداية أردت أن يكون الأمر كما لو أنه شرحٌ مفصلٌ لتفاصيل كثيرة عن فلسطين حتى نُعرفكم عليها أكثر، لكنني وبعد تفكير وجدت أن الحل الأمثل هو ألّا نظل نعرض صورًا محفورةً في ذاكرتنا جميعًا أو أن نعرض أماكنًا في وطننا نحن على علمٍ بها حتى ولو أقل القليل. ربما هذا مفيدٌ للغاية بالنسبةِ للأطفال الذين هم في حاجةٍ إلى معرفة أكبر عن تفاصيل وطنهم الذي يعيشون فيه وهو الأمر الذي بدأته ريمان ونتمنى أن يثمر مع الأطفال، لكن بالنسبةِ إليكم أيها الكبار وبالنسبةِ إلى الشباب الحاضرين اليوم وجدت أنه سيكون من المناسب أن نستمع لشيءٍ ما.

سأبدأ العرض بمقطعٍ ستقومون بسماعه على تلك الشاشة ثم نتحدث بعدها مرةً أخرى..".

ثم قامت "وانا" بالإشارة إلى أحمد الذي قام بتشغيل الجهاز فصدح صوتٌ ذكوريّ شبابيّ كان عاليًا بما يكفي ليسمعه كل من في القاعة. وبدأ الصوت حديثه قائلًا:

="أنا سامر. عمري اثنان وعشرون عامًا. لم أحصل على الفرصة المناسبة لإنهاء آخر سنةٍ في دراستي الثانوية فقد قصف العدو منزلي قبل أيام من بدء العام الدراسي الجديد. كان أبي بعمله عندما حدث القصف. لم أشعر بأي شيء إلا بصوتٍ عالٍ للغاية كان يشتد وهو يقترب من أذنيّ ثم وقع الانفجار. بعدها بدقائق استطعت الرؤية من حولي فإذا بكل شيءٍ قد تحول إلى حطام، لم يتبقَ شيءٌ على حاله. حاولت النهوض للبحث عن أمي وإخوتي في الحطام بصعوبة وأنا أحاول الخروج من غرفتي أو التي كانت غرفتي. وصلت بصعوبة خارج حطام الغرفة إلى المكان الذي كانت تجلس فيه أمي وإخوتي لكنني لم أجد أحدًا فتوقعت الأمر، هم تحت الحطام إذن وانتهى كل شيء، فلن يتمكن أحد من إخراجهم، وحتى إذا حاول أحدهم فإنه لن يتمكن قبل ساعاتٍ كثيرة ستكون الروح قد ذهبت إلى خالقها.

لم أستطع فعل شيءٍ عدا الصراخ، صرخت عاليًا بكل ما أوتيت من قوة لكن.. لكنني لم أسمع صوت صراخي، لم يصل إلى مسمعي صوت صرخاتي، لم يصل إلى مسمعي أي شيءٍ في الواقع. وحدث الأمر في دقائق، فقدت سمعي أيضًا جرّاء القصف.

جلست أمام حطام منزلنا لا أعرف ماذا أفعل ودموعي تنهمر بصمتٍ على صفحة وجهي والمارة المتجمعون أمام الحطام يحاولون تهدئتي بشتى الطرق وهم غير مدركين أنني لا أرى إلا صورًا، لكنني لا أسمع حتى محاولاتهم لمواساتي. ثم رأيت أبي يأتي راكضًا، أحدهم أخبره بالحادث فجاء ليجد هيئتي تلك أمامه، ليسقط أمامي على الأرض على ركبتيه بعجز وتنهمر دموعه هو الآخر وهو يصرخ بحرقة استطعت تبينها من ملامح وجهه رغم عجزي التام عن سماع صوته.

ومن وقتها أصاب حياتنا العجز التام. وبات أبي يحاول قدر الإمكان أن يخرجني من الحالة التي أصابتني لأنني أثقلت كاهله أيضًا بفقداني لسمعي الذي بات يحاول قدر الإمكان مساعدتي في التعامل معه فحياتي منذ وقتها تغيرت كليةً وبات لها شكلٌ آخر وبت في حاجةٍ إلى معاملة خاصة. لم يكن أبي ليقدر

على البقاء معي طوال الوقت وترك عمله، وكان عليّ الذهاب إلى المدرسة ومحاولة إكمال حياتي بصورةٍ طبيعية، لكن هيهات، كان الأمر أصعب مما نتخيل. لكن يمكنني القول أن تلك المدرسة التي ألحقني بها والدي فيما بعد ساعدتني كثيرًا ولم يتركوا فرصةً لأفقد نطقي أيضًا، ساعدوني كثيرًا كي أظل أتحدث حتى وأنا لا أسمع ما أقول.

وها أنا ذا أحكي قصتي اليوم لأنهم أخبروني أنني ملهمٌ للكثيرين؛ فبالرغم من كل ما قاسيته إلا أنني لم أفقد الأمل يومًا، ووالدي ظل معي طوال الوقت وحتى هذه اللحظة، حتى وإن رحل عن عالمي الماديّ فهو في عقلي وقلبي لم يفارقني لحظة، ولا زالت كلماته عالقةً في رأسي تمنحني الأمل فيما هو قادم.

حتى اختارتني المنظمة الدولية لحقوق الإنسان كسفيرًا لأصحاب الهمم في الوطن العربي. وأنا لا أتوانى لحظة عن إرسال رسالتنا ومساعدة فلسطين بالغالي والنفيس في كل وقت، ولا عن طرح قضية فلسطين وتاريخها العظيم في كل مكان ليعرفه العالم أجمع. ولن أتوانى لحظة حتى يخرج العدو صاغرًا ويتحرر الأقصى. ووقتها فقط سأشعر أنني قد أخذت بثأري وثأر أبي وأمي وإخوتي.

وأخيرًا إلى كل من يستمع إليّ، لا تتوانَ في الدفاع عن هذا الوطن الطاهر، هم ينتظرون منا أن نفقد الأمل وأن نتوقف عن إزعاجهم بقضيتنا وأن نترك لهم الأمر بسلام، هم ينتظرون أن نشعر بالملل فنترك قضيتنا، هم ينتظرون هذا بفارغ الصبر ليكملوا طريقهم مطمئنين.

وصدقوني لا يزالون يخشوننا، صدقوني ربما يظهر عليهم الثقة والقوة والسلطة ولكن هم أضعف مما تتخيلون، هم أجبن مما تظنون، وهم يخشوننا لدرجة الذعر، هم يخشون صحوتنا إذا حدثت فجأة، هم يخشونها لكن لديهم اطمئنان في هذه اللحظة من أن تلك الصحوة لن تحدث وستطول غفوتنا.

لهذا تحركوا وانهضوا، قوموا أنتم بصحوتكم حتى ينهض العالم العربيّ كله، فهو لن ينهض إلا عندما ننهض نحن، عندما نوحد صفوفنا ونتخلى عن ضعفنا واستسلامنا لإرادتهم، عندما تنهض فلسطين سينهض الجميع.. عندما ينهض القلب سينهض الجسد صدقوني"

*****

١١

مر الأسبوعان والعمل على قدمٍ وساق لاستقبال لجنة الأمم المتحدة التي هي على وشك الوصول. وصلت المتابعة وبالفعل ذهبت إلى الأماكن التي أخبر يمان "وانا" عنها منذ أسابيع؛ وصلت إلى مخزن المؤن أولًا وظلت تسأل الأفراد الذين يعملون هناك وحتى الأناس العاديين الذين كانوا يذهبون إلى هناك ليحصلوا على مؤنهم من المخزن، وهكذا بالنسبة لبقية أماكنهم التي يعملون بها. وكان من ضمن لجنة المتابعة تلك: أكرم من مصر، ماريا من لبنان، ومايكل من الولايات المتحدة الأمريكية. استمعوا إليهم وإلى رغبتهم في الوصول إلى من له صوتٌ مسموعٌ حقًا في الجمعية العامة للأمم المتحدة أو مجلس الأمن أو أيًا يكن، كما أن لديهم مطالب ويجب الاستماع إليها، هذا بالإضافة إلى أن فلسطين يجب أن يكون لها مكان وصوت في كل هذا تمامًا كما أن إسرائيل لها صوت ومقعد في الأمم المتحدة.

وبالفعل مثّل الثلاثة من لجنة متابعة الأمم المتحدة وسيلة ضغط عندما عادوا، من أن المخيم بحاجة إلى لجنة متابعة أخرى ولكن

هذه المرة لهم مطالب وعلى الأمم المتحدة بصفتها الدولية أن تستمع إليهم وتحاول تنفيذ تلك المطالب. وعليه أُخذ قرار بإرسال لجنة متابعة أخرى إلى مخيم الشاطئ لترى هذه المطالب وترى ما يمكنها فعله.

وبعد أن أثمر الضغط الذي شكّله الثلاثة من اللجنة الأولى في قدوم اللجنة الثانية بعد أسبوعٍ واحدٍ فقط، أتت الرياح بما لا تشتهي السفن؛ فاللجنة لم تأتِ للاستماع إليهم، بل أتت وقد حددت ما ستقترح عليهم من إجراءات لتحسين وضعهم قليلًا في مخيم الشاطئ؛ كأن تقوم بتوسيع نطاق صيدهم في البحر المتوسط.. وفقط بعد موافقة إسرائيل.

وفي الواقع كان الاحتجاج هو سيد الموقف هذه المرة، فقد رفض الأهالي هذه الإجراءات رفضًا قاطعًا واحتجوا من كون هذه ليست بالمطالب التي أرادوا لجنة أخرى من الأمم المتحدة من أجلها. كما أن موافقة إسرائيل تلك التي تضمنتها الإجراءات كان بمثابة هراءٍ بالنسبةِ إليهم.

وأمام دهشتهم خرج طفلٌ صغير من صفوف الأهالي محتجًا ومؤكدًا على رغبته في تحرير الاقصى، ما قوبل بابتسامة سخرية من اللجنة وانتظارهم أن يقوم أحد بنفي ما قاله الصغير لأن هذا

المطلب بالطبع ليس بالشيء الذي ستأتي اللجنة كل هذه المسافة من أجله، فما يردده الصغير ما هي إلا شعارات يرددها الفلسطينيون منذ عقود لكن ليس الأمر بهذه السهولة، كما أن الوضع الأمنيّ العالميّ قد استتب على هذا النحو لهذا لا يمكن إعادة إثارة البلبلة بتلك الطريقة مرةً أخرى. ولن تسمح الأمم المتحدة بأن يُقال عنها من العالم أجمع أنها استمعت إلى هذا العبث بل وستقوم بالنظر فيه. ولما لم يحدث ما رغبته ولم يقم أحد بنفي ما قاله الصغير استاءت اللجنة بسبب الوقت الذي ضيعته في أمرٍ كهذا، وفي حلمٍ صعب المنال والتحقيق، بل ومستحيل، كما أن الحديث قد انتهى فيه منذ زمن.

ولم تكن الدهشة التي أصابت ثلاثيّ اللجنة الأولى بأقل من اللجنة الثانية، فهم قد تعجبوا من أن ما قاله الصغير هو حقًا المطلب الذي أرادوا لجنةً أخرى من أجله، فهم قد تصوروا أنهم سيقبلون بما ستطرحه اللجنة وبما سيُحسن الوضع القائم في المخيم. لهذا كانت رغبة تحرير الأقصى تلك بمثابة الصفعة على وجوههم؛ لأن الأمر غاية في الصعوبة بالفعل خاصةً بعد ما مرّ من عقود.

وعليه فقد انتهى الأمر من أنهم تمنوا للمقاومة التوفيق، ورحلوا يجرّون أذيال الخيبة من حقٍ يعلمون تمام العلم أنه مستحيلةٌ عودته.

*****

على الرغم من كل ما حدث إلا أن المقاومة لم تتوقف، ولم يضعفها ما حدث، بل ظلت تحاول بلا كلل. ومن حسن حظها أن إعلام أكثر من دولة قد أتى بعد العلم بالحدث الذي أراد فيه مجموعة من الشباب والأهالي في مخيم الشاطئ في غزة القديمة تحرير الأقصى متخيلين سهولة الأمر. وكانت المقاومة تقول الكلمات ذاتها في كل مرةٍ يحاول أحد تغطية الخبر وفي كل إعلامٍ جاء إليها، من أن مطلبهم لن يتغير أبدًا.. تحرير الأقصى، وأنهم لن يتوانون لحظة في الوصول إلى هذا الهدف أبدًا.

وعليه عرف ثلاثيّ اللجنة الأولى بالأمر وكأن الأمر قد عاد في جعبتهم من جديد، لهذا حاولوا تقديم المساعدة مرةً أخرى، ولكن ليس من خلال الأمم المتحدة هذه المرة ولكن من خلال دولهم. فما رأوه في شعوب دولهم من مساندة لهؤلاء الأفراد

الفلسطينيين على مواقع التواصل الاجتماعيّ جعلهم يدركون أنه من الممكن تقديم شيءٍ إليهم، بل ويدركون أيضًا أنه قد حان الوقت وأنه لا طائل من التراخي بعد الآن، وأنهم لن ينتظرون تغلغل الهوان أكثر من هذا.

وحتى مايكل الأمريكيّ الجنسية تحرك هو الآخر وهو مدركٌ تمام الإدراك ما اقترفته دولته في حق كل فلسطينيّ، شاعرًا أن له دورًا في محاولة إصلاح ما حدث، لهذا لم يتوانَ هو الآخر لحظة عن المساعدة من خلال صديقه صاحب المنصب الهام في الكونجرس الأمريكيّ الذي تمكن من إقناعه بما يفعل.

وبالفعل حدثت جلبة غير متوقعة في آنٍ واحد وكأن كل الظروف قد اتحدت لتمنح القدس فرصةً أخرى، لتمنحها نفسًا آخرًا للحياة. وعليه تفجرت منظمات حقوق الإنسان وحقوق اللاجئين في كل مكان، وأصبحت الاحتجاجات والمظاهرات في الشوارع ضارية، وكأن العالم كله قد استيقظ لتوه ليدرك ذلك الخطأ الذي اقترفه ببقائه غافلًا كل تلك السنوات.

لكن وبالطبع لم يصمت القط المذعور وينتظر هلاكه مستسلمًا، بل حاولت إسرائيل إنهاء كل تلك البلبلة بالتخلص ممن بدأها.. من المقاومة. وحاولت القيام بهذا بأن تُجْهِزْ عليهم فرادى، لكنها

اكتشفت أن هذا سيكلفها الكثير وسيُزيد الأمر سوءًا لأنهم حتى وهم فرادى حولهم الكثير من الأفراد في كل مكانٍ يذهبون إليه. لهذا قررت أن تتخلص منهم مجتمعين، قررت أن تتخلص منهم في عقرِ دارهم الذي استطاعت الوصول إليه.

حددت الوقت الذي كانوا جميعًا مجتمعين فيه يفكرون في خطوتهم التالية ثم ألقت بقنبلة على المكان. لم يشعروا بشيءٍ إلا بالرجة التي أصابت المكان بأكمله ثم التصدعات التي بدأت تصيب الجدران دفعة واحدة وهي تتهاوى فوق رؤوسهم و النار تنتشر كالهشيم في كل الأرجاء. حاول كلٌ منهم الركض قدر استطاعته والخروج قبل أن يتحول الأمر إلى حطامٍ على رأسه، كان كل واحدٍ منهم ينادي على الآخرين أثناء ركضه علّه يجد شخصًا آخر ليخرجه معه.

ثم وبعد دقائق، وبعد أن خمدت النيران وتحول المكان كله إلى أنقاض نهضوا جميعًا وكل واحدٍ منهم يطمئن على من يجده، حتى صدح صوت ريمان عاليًا وهي تصرخ "أين خالد؟!!" وهي تركض في كل مكان محاولةً البحث عنه. بدأوا جميعًا بالركض في كل مكان باحثين عن خالد لكن بلا فائدة، ظلوا يحاولون مناداته باسمه لدقائق لكن أيضًا بلا فائدة. كان الصمت هو سيد

الموقف والعبرات تنهمر بلا هوادة حتى قطع الموقف صوت سيارة المطافئ وخلفها سيارة الإسعاف. مرت أكثر من خمس عشرة دقيقة حتى استطاعوا إخراج جثة خالد من تحت الأنقاض. كانت ريمان هي أول من لمحت الجثة فهرعت ناحيتها مسرعةً وهي تزيل الغطاء الذي غطّى جسد خالد وتبكي بحرقة وهي تنادي عليه باسمه وتقول من بين شهقاتها:

-"لا خالد.. أنت لم ترحل.. هيا انهض.. هيا خالد.. أنت لن تتركني وترحل.. أنت لم تقل هذا.. لا يمكنك.. لا يمكنكَ تركي والرحيل.. انهض فقط لترى والدتك.. أنت تعلم أنها ستصبح وحيدةً بدونك.. انهض من أجلها أرجوك.. هيا خالد لا تفعل بي هذا.. سيصبح كل شيءٍ على ما يرام صدقني وسينتهي الأمر.. أرجوك خالد انهض.. أرجووووك"

ثم ظلت تبكي وهي تنادي باسمه علّه يستيقظ حتى أمسكت بها "وانا" وهي تبعدها عن الجثة وتحاول تهدئتها، وريمان وكأنها كانت تنتظر يدًا تربت على كتفها حتى ارتمت بين ذراعيّ "وانا" وهي تبكي بحرقة. والجميع واقفون إلى جانب جثة خالد تنهمر دموعهم في صمت.

حتى اقترب يمان من جثة خالد وهو يهمس إليها وكأنه يحدثه:

="لا تقلق خالد واسترح. سأجلب حقك، صدقني.. سأفعل"

ثم ذهبوا جميعًا إلى المشفى لعلاج إصاباتهم.

وانتهى اليوم، وانتهت معه قصة خالد بطل المقاومة..

ربما انتهت من الدنيا ولكنها ظلت خالدة في قلوبهم جميعًا وفي قلوب الجميع فيما بعد.

*****

١٢

بعد مرور أسبوعين على الواقعة وبعد أن هدأت الأمور قليلًا، وانتظروا جميعًا لتحسنِ حالتهم بعد وفاة خالد، شعرت "وانا" بحاجتها إلى رؤية البحر من جديد، إلى الشعور بالهواء يتخلل إلى جسدها مرةً أخرى، إلى الشعور بالحياة مرةً أخرى فمنذ وفاة خالد ويعيشون كلهم كالأموات؛ كلٌ يحبس نفسه في غرفته يأبى الخروج منها وكأنه يعاقب نفسه على خذلانه لخالد والتأخر في إنقاذه، وكأنه يعاقب نفسه على ذلك الخطأ الذي ارتَكَبْ في حق خالد.

ريمان كانت حالتها الأسوأ من بينهم جميعًا؛ فخطبتها على خالد لم يكن قد مرّ عليها العام بعد، وكانت كلمة حب قليلة عمّا تشعر به تجاهه، كان هو حياتها حقًا بعد أن فقدت والديها في أحد أيام القصف على غزة. تعرّفت على خالد في المقاومة وكأن القدر أراد تعويضها سريعًا على خسارتها. أحبّها خالد حقًا وكان يريد تعويضها بحق عن كل ما عانته، تعلّقت به أشد التعلق، وباتت لا تتخيل حياتها بدونه يومًا واحدًا.

وبالنسبةِ إلى خالد كانت هي ذلك النسيم الرقيق الذي كانت حياته في أمس الحاجةِ إليه، فتنقله المستمر في كل فلسطين بسبب الحرب والقصف أودت بحياته التي لم تعرف الاستقرار يومًا، فجاءت ريمان كالمرهم الشافي لكل جروحه، ابتسامتها كانت تمنحه إحساسًا بالأمان لم يشعر به يومًا، وجودها كان يطمئنه أن كل شيءٍ لم ينتهِ بعد وأنه لاتزال هناك حياة بانتظاره وسيتغير كل شيءٍ للأفضل، لكن من يعرف ما الذي يخبئه لنا القدر. لهذا انهارت ريمان تمام الانهيار بعد وفاة خالد وكأن ذلك العكّاز الذي كانت تستند عليه قد انكسر، وكأن الحياة غاية في الإصرار على إسقاطها، وإسقاط كل ما تستند عليه؛ أولًا الوطن والآن خالد.

أما يمان فكان قد قرر ألا يقف صامتًا، وأن ينفذ وعده لخالد بجلب حقه، لهذا اتجه اتجاهًا آخر، فانضم إلى حماس، وإلى المقاومة التي لطالما رفضها وشجعهم على رفضها.. المقاومة المسلحة، تلك التي لا يخرج منها كلا الطرفين منتصرًا أبدًا، لابد أن يكون هناك قتلى، وهو يدرك الأمر ويعرفه تمام المعرفة فهو قد اختبره مرارًا ويعرف جيدًا الطرف الذي يخسر في هذه المعركة، لكن صورة خالد بعد إخراجه من تحت الأنقاض لم

تفارق عقله أبدًا، ولم يعد يرى إلّاها، ولم يعد يرى إلا حق خالد الذي عليه أن يسترده حتى لو اضطر إلى حرق إسرائيل كلها عن بكرة أبيها، حتى لو اضطر إلى إشعال الحرب من جديد.

فمن قال أنها قد انتهت، أو حتى انطفأت نيرانها في قلب فلسطين، فالنار لاتزال على أشدها في قلوبهم جميعًا لم تهدأ يومًا، وقد فاض الكيل، وسينتهي الأمر تمامًا، فكما قيل: "إما فلسطين أو النار جيلًا بعد جيل"..

*****

١٣

مر شهرٌ كامل على الحادث وعلى زيارة لجنة المتابعة، ولازال الوضع على ما هو عليه، اللهم إلّا من أنهم قد عادوا إلى أعمالهم محاولين استكمال حياتهم، أو حتى التظاهر بهذا.

و"وانا" قررت أنها ستظل قرب البحر قدر الإمكان، لهذا أخبرت غيث أنها تريد العمل معه في مركز الصيد، وأعطاها هذا سببًا قويًا للابتعاد والجلوس أمام البحر بالساعات كما كانت تتمنى.

أما تجمعاتهم فقد ندرت تمامًا، ربما يجتمعون ثنائيات لكنهم لا يجتمعون جميعًا مرةً واحدة أبدًا. وحاول غيث وأحمد مرارًا إثناء يمان عن أفكاره وعن انضمامه لحماس هذا وأن يبتعد عن الأمر ويعود للعمل معهم كما كان يفعل لكنه ظل على موقفه، لن يُنهي الأمر إلّا وحق خالد قد وصله كاملًا. وبعد محاولات ومحاولات باءت جميعها بالفشل توقفوا عن المحاولة وتركوه يفعل ما هو مصرٌّ عليه وفي قلوبهم آلاف المشاعر من الحسرة والندم والخوف والفزع وفي غيرها الكثير على حال صديقهم.

وربما هم توقفوا عن التحدث أمام الكاميرات ومع الإعلاميين، لكن كان هناك طريقٌ آخر في أماكن أخرى لم يتوقف السائرون

فيه عن محاولة الوصول لهدفهم؛ فثلاثيّ اللجنة؛ أكرم وماريا ومايكل لم يتوقفوا عن العمل يومًا، وعملوا بكل جهد للضغط على بلدانهم.

ولأن الطرف الأمريكيّ كان هو الأقوى في المعادلة، ولأن قراره سيسير خلفه الكثيرون لم يتوانَ مايكل لحظة في الضغط على الكونجرس الأمريكيّ من خلال صديقه ذي المكانةِ الكبيرة فيه.

وكأن القدر كان معهم في تلك اللحظة بالتحديد ليسير الأمر وبكل بساطة وبصورةٍ غير متوقعة بأن يوافق الكونجرس الأمريكيّ على القضية، ويُثمر ضغط كلٌ من أكرم وماريا على بلدانهم، وتوافق كلٌ من مصر ولبنان أيضًا ويبدأ الأمر بأخذ المنحى القانونيّ والإجرائيّ. وتعود مبادرة فاس للظهور على السطح من جديد بعد سبعةٍ وثلاثين عامًا، ولكن هذه المرة ستتغير قواعد اللعبة قليلًا وللمرةِ الأولى ستكون لصالح الطرف الفلسطينيّ.

ولما كانت مبادرة فاس التي ظهرت عام ١٩٨٢ تنص على:

انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ بما فيها مدينة القدس، وأيضًا تفكيك المستوطنات التي أقامتها في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧، هذا بالإضافة إلى تأكيد حق الشعب الفلسطينيّ في تقرير مصيره

وقيام الدولة الفلسطينية المستقلة وأن تكون عاصمتها القدس الطاهرة. جاء هذا في مقابل حصول إسرائيل على السلام وأن تضمن تحقيق هذا من خلال مجلس الأمن.

ولأنه وبسبب ضعف الصف العربيّ في ذلك الوقت والعجز الذي كان يأكل كل أواصر الترابط العربيّ ويدمر كل الجذور التي كان يتم بناؤها لسنوات لم تأتِ المبادرة لصالح الصف العربيّ على الرغم مما كان يظهر من أنها تأتي كاملةً لصالحه.

وحتى عندما حدثت محاولة أخرى لإصلاح الأمر، جاءت هي الأخرى في طريق التسوية مع الصف الإسرائيليّ، وكانت هي مبادرة السلام العربية التي عُقدت في بيروت عام ٢٠٠٢.

وعلى الرغم من أنها كانت بعد مبادرة فاس بوقتٍ طويل ومن المفترض أن تأتي لتتدارك الأخطاء التي وقع العرب فيها وقت مبادرة فاس إلا أنها جاءت بتنازلاتٍ أكبر من جانب الصف العربيّ، وبإشارةٍ واضحة على أن هذا الصف لن ينهض أبدًا في الوقت الحالي وبإمكان إسرائيل فعل ما يحلو لها وتحويل الأمر برمته لصالحها، وهذا ما حدث بالفعل فمبادرة بيروت جاءت بتنازلات مشينة، فقط لإغراء إسرائيل أكثر فقد نصت على:

نفس المطالب التي نصت عليها مبادرة فاس ولكن باستثناء مطلب تفكيك المستوطنات فقد تنازل العرب عنه، بالإضافة إلى إغراءٍ أكثر للصف الإسرائيليّ وهو أنه بالإضافة إلى علاقات السلام التي ستقيمها الدول العربية مع إسرائيل ستقيم معها علاقات طبيعية أيضًا، وهو ما كان يعني أن يحدث تبادل تجاري وعلاقات سياسية واقتصادية وغيرها مع إسرائيل. وهو ما عنى بما لم يدع مجالًا للشك أن العرب قد اعترفوا بإسرائيل كواقع ملموس عليهم أن يتكيفوا معه بل ويقوموا بما يلزم الأمر أيضًا حتى لو وصل هذا إلى إقامة علاقات طبيعية كاملة معها.

لكن هذه المرة أتى الأمر في صالح الصف العربيّ بالفعل وعقدت الولايات المتحدة الأمريكية ولبنان ومصر قمة مع إسرائيل لتشهد عليها كل الدول، أن الأمر سينتهي بخروج إسرائيل من كل الحدود التي احتلتها، كلها بلا أي استثناءات، لكن سيظل الأقصى تحت الوصاية الدولية؛ سيكون له وضع دوليّ خاص أي أنه لا يتبع فلسطين أو إسرائيل بل سيتبع الأمم المتحدة. وعلى الرغم من أن هذا أثار حفيظة الدول العربية لأنها أرادت عودته لفلسطين، لكن إذا لزم الأمر وصاية دولية فلتكون الدول العربية هي الوصيّ وليس الأمم المتحدة. لكن وصول

الأمر إلى هذه المرحلة كان يستحق صمتهم قليلًا حتى يضمنوا عودة الحق الفلسطينيّ لمكانه ثم سيتحدثون فيما بعد فيما يخص الأقصى، أو سيكون الأمر سهلًا إعادتها لمكانها الطبيعيّ.

وبالطبع لم تنتظر إسرائيل قرار الحكم عليها بالإعدام وهي صامتة مستسلمة، فالولايات المتحدة الأمريكية حاولت التوصل معها إلى أمرٍ وسط وهو أنها ستقوم بتعويضها عن الأمر. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن تمتلك شيئًا لتعوض إسرائيل به، وربما هي أيضًا تعلم أن ما تفعله من مساندة الطرف الفلسطينيّ هو ما سيقلب أطرافًا كثيرة عليها، لكن لم يكن أمامها خيارٌ آخر فما ظهر من رد فعل من دولتين عربيتين كبيرتين كمصر ولبنان جعلها تدرك أن الإفاقة العربية وشيكة وإذا حاولت مواجهتها ربما سيكون في الأمر نهايتها هي. لهذا اضطرت إلى فعل هذا حتى تصبح الفرصة سانحة وتُعيد سيطرتها على كل شيء، أي أن كلاً يغنّي على ليلاه، وكلاً يريد مصلحته التي ستعود عليه من الأمر.

أما فيما يخص إسرائيل فقد أظهرت أنها خضعت للأمر الذي فرضته عليها الولايات المتحدة الأمريكية والدول العربية، لكنها في واقع الأمر كانت تخطط لضربتها الكبرى، وكانت تعلم أين

ستوجه ضربتها تحديدًا، للمكان الذي بدأ منه كل شيء.. المقاومة مرةً أخرى.

وهذه المرة كان المستهدف هو يمان؛ لأن تحركاته ومناصرته لحماس قد أثمرت وأسفرت عن العشرات والعشرات من القتلى الإسرائيليين في عمليات التفجير التي كان يشارك فيها، وكان قد بدأ يشكل تهديدًا على الطرف الإسرائيليّ لإثارته لبلبلة لا يتوقف عنها لحظة، وكان هو هدفًا سهلًا بالنسبةِ إليهم فقتله سيظهر للعالم الخارجيّ على أنه مجرد ردٌ على هجوم حماس ولا يمت للمقاومة بصلة. وبهذا لن تُفتح النار عليها لأنه مجرد دفاعٌ عن نفسها ضد الهجمات المتكررة عليها.

وبالفعل انزاح عائقٌ آخر من طريق إسرائيل باستشهاد يمان على يد أحد الجنود الإسرائيليين، ووقع الخبر على المقاومة كالصاعقة، ليس لأنهم لم يتوقعوه بل لأن الأمر أصبح مرعبًا. هم ينقصون واحدًا تلو الآخر وهم مكتوفو الأيدي لا يمكنهم فعل شيء لهؤلاء الذين يسقطون من بينهم.

كان يمان مبتسمًا في نعشه، ولم يدرِ أحد أهو سعيدٌ لأنه رحل عن هذا العالم الذي لا يعرف غير القتل والدمار؟؟ أم أنه سعيدٌ

لأنه استطاع جلب حق خالد قدر ما استطاع وقدر ما أسعفته طاقته، ووقته أيضًا؟؟ لم يدرِ أحد أبدًا.

رحل يمان عنهم أيضًا ليتبقى غيث وأحمد ورزان وريمان ووانا، يحاولون إكمال طريقهم فلا مفر الآن، ولا يمكنهم العودة فقد وصلوا إلى المنتصف، ولم تعد القضية قضيتهم وحدهم بعد الآن، بل أصبحت قضية الملايين ولن يتركوا الميدان أبدًا فلم يفعلوا هذا يومًا ولن يحدث، بل سيكملون ما بدأوه مهما كلّفهم الأمر، سيكملون ما بدأوه من ضغطٍ على الدول من خلال وسائل الإعلام والمنظمات التي باتت تتردد على فلسطين بين الحين والآخر وتتواصل معهم على مواقع التواصل الاجتماعيّ.

وعادت القضية للظهور على المكاتب من جديد، وخرجت من كل الأدراج التي ظلت مغلقة لعقود. واشتعلت النيران من جديد وبات الانفجار وشيكًا ولن يتوقف أحد أو يستسلم..

فإما فلسطين أو النار جيلًا بعد جيل.

*****

١٤

ذهبت "وانا" إلى مكانها المعتاد مرةً أخرى.. البحر، فقد أرهقتها الأيام الماضية حتى لشعرت بأنها تريد أن تتحرر مما يقيّدها من كل جانب.

اتجهت للبحر وهي تتمنى أن ترى غيثًا هناك، باتت تشعر بوجود ذلك الرابط القويّ الذي يربطهما معًا، وكلما حاولت الظروف إبعادهما يعود هذا الرابط ليجذبهما من جديد وكأنه يخبرها أن مكانها معروف وعليها أن تدركه هي أيضًا. لا يمكنها الجزم بما تشعر حتى هذه اللحظة، جل ما يقلقها هو الوضع الذي يمرون به، لقد اعتادت على فراق من تحب، وسيكون الأمر غاية في الصعوبة أن تتعلق بأحدهم من جديد، خاصةً وأن جرح قلبها منذ رحيل غسان لم يلتئم بعد. لكنها تشعر بهذا الرابط وبقوته ولا يمكنها مقاومة قوة جذبه إلى الآن، على الرغم من أن غيث لا يضغط عليها بأي شكلٍ من الأشكال، بل على العكس تمامًا هو يتركها على راحتها كما طلبت منه.

والأمر ليس في غيثٍ على الإطلاق بل بها هي، الأمر كله يتعلق بوانا ولا تعرف كيف يمكنها إخباره بهذا، كيف يمكنها إخباره

بأنها تكون في أوج سعادتها عندما يكون بالجوار، وكيف تشعر بالقوة لكونه يساندها في حربهم هذه، لكنها وعلى الرغم من كل هذا لا يمكنها إعطاءه أملًا تعرف أنه من الممكن أن يتم سلبه في أي وقتٍ من كليهما معًا.

وكأن القدر قد أراد أن يبرهن لها عمق هذا الرابط فعند وصولها وجدت غيث بالفعل يجلس في مكانهما المعتاد. ثم وبعد ثوانٍ لم تتحرك فيهما خطوة واحدة وهي تنظر إليه من بعيد متعجبةً من أنه يجلس هنا بالفعل وجدته ينظر إلى الجهة التي تقف هي فيها ثم ابتسم ابتسامته المعهودة التي يستقبلها بها ثم نظر إلى البحر أمامه. لا تعرف لمَ شعرت بأنه كان في انتظار قدومها هو الآخر.

توجهت إليه وهمّت بأن تتحدث لولا أن قاطعها هو قائلًا:

"كنت أنتظركِ، لمَ تأخرتِ!!"

نظرت إليه متعجبة ثم ابتسمت مُجيبة:

"وأنا كنت أتمنى أن أراكَ هنا أيضًا"

هذه المرة لم يفكر كثيرًا، نظر إلى عينيها ثم قال سريعًا وكأنه لا يريد التراجع:

="أتقبلين الزواج بي؟"

اتسعت عينا "وانا" على آخرهما من الدهشة، ثم كان كل ما استطاع لسانها إسعافها به أن قالت:

-"ماذا؟!!"

="كما سمعتِي وانا، أتقبلين الزواج بي؟؟"

-"لكن غيث.."

="ليس هناك ولكن غيث، أتقبلين أم لا؟"

-"لكنكَ تعلم أن الوضع الآن غاية في الصعوبة من كل الجهات غيث، لهذا لا أعلم كيف استطعت أخذ خطوةٍ كتلك في وقتٍ كهذا!!"

="صدقيني لأنه وقتٌ كهذا أخذتُ هذه الخطوة بالتحديد. "وانا" أنا فقط أريد أن أقضي كل حياتي الباقية معكِ حتى لو كان المتبقي لي ساعات. فقط لو تعلمين ماذا تمثلين بالنسبةِ إليّ، فقط لو تعلمين أن كل شيءٍ يهون فقط لرؤياكِ.

لو أن الدنيا تراكي بعينيّ "وانا".. فقط لو تراكي".

نظرت إليه "وانا" عاجزة عن الرد، لا تعلم ما الذي بإمكانها قوله يضاهي كلماته تلك، يضاهي كل كلماته التي يغدقها بها منذ رآها، أو يضاهي نظرة عينيه تلك التي تحمل الكثير والكثير.

لهذا قررت أنها ستخبره بالحقيقة كاملة، أو بصورةٍ مباشرة هذه المرة مع إضافة شعورها الذي يعتريها منذ وقتٍ طويل فتحدثت قائلة:

="غيث، لقد أخبرتكَ بالأمر من المرةِ السابقة بكل صراحة، لكنني لم أخبرك أنني حقًا أشعر بشيءٍ غريبٍ تجاهك وكأن هناك رابطًا قويًا يربطنا معًا ولا يمكنني الهرب من سيطرته، لا يمكنني الهرب من هذا الشعور الذي يعتريني أنني فقط أريدكَ هنا، أن تظل إلى جواري إلى الأبد. لقد منحتني ذلك الشعور الذي كنت قد فقدته منذ رحيل غسان؛ أنّ أحدهم هنا من أجلي، يعرف جيدًا كيف أفكر وماذا أريد وماذا سأفعل، يعرف كيف ستكون قراراتي قبل أن آخذها.

لا أعلم مسمى هذا لكن حقًا كما قالت نايرا وحيد "كأن كل ما قد فقدته يومًا عاد"، وأنا فقدت الكثير عندما رحل غسان ثم عاد إليّ فجأة وبدون سابق إنذار بوجودكَ أنت.

لكن لكي أكون صادقة معك، تمامًا كعادتي منذ أن التقيتك، لا يمكنني الدخول في هذا الأمر أكثر، لا يمكنني أن أفقد أحدهم مرةً أخرى. أرجوك يكفيني رعبي الدائم على والديّ وعبود، لا يمكنني تحمل كل هذا الألم بأن أُعلّق قلبي بكَ أنتَ أيضًا

وأتحمل هذا العذاب. ألم ترَ ريمان؟!! أرجوك غيث، إنني أتألم عليها إلى اليوم".

نظر إليها غيث مبتسمًا ثم قال:

="لا يمكنكِ تخيل شعوري في الوقت الحالي بعد كلماتكِ هذه، كنت سأنهار كما أخبرتكِ في السابق إذا كانت إجابتكِ قد أتت بالسلب".

أما فيما يتعلق بما قلته للتو، دعيني أخبركِ شيئًا..

="هل كل شيءٍ في هذا العالم رائعٌ على الدوام، أو رائعٌ فقط؟"

-"بالطبع لا"

="جيد، هناك الجيد وهناك السيء أليس كذلك؟"

-"أجل"

="حسنًا، وإذا أردتِ الميزات فقط فلن تكونين عاقلة على الإطلاق، بل عليكِ تقبل السيء تمامًا كما تريدين الرائع. عليكِ أن تأخذي من كل شيءٍ حلوه ومره وانا، وليس حلوه فقط، أليس كذلك؟"

-"أجل"

="والحب ينطبق عليه نفس الأمر تمامًا، فبه كل ما هو سيءٌ أيضًا تمامًا كما هو مليءٌ بأحلامه الوردية. وإذا أردتِ أحلامه

الوردية تلك فعليكِ أن تحترقين بنيرانه أيضًا، أو تحاولين استغلال هذه النيران لتأخذين منها قوة لهيبها لا أن تحرقكِ وانا. أتفهمين ما أقصد؟"

-"أجل غيث أفهمك"

="وصدقيني ليس بالأمر الصحيح أن تكفين عن التعلق كي توقفين الألم، فهذا لا يُوقف الألم على الإطلاق صدقيني. لكن بإمكانكِ مواجهة ما تقابلين من صعوبات بهذا الرابط الذي أخبرتِني عنه منذ قليل، وهو ما يسمى بالحب وانا.

وصدقيني كلما كان هذا الرابط أقوى، كلما كانت هزيمته أمرًا صعبًا.

فحبي لكِ يا "وانا" على سبيل المثال أقوى من أن تهزمه المدافع ورشاشات الاحتلال، أقوى من ذلك المحتل الذي يعلم تمام العلم أنها أرضي ويسرقها مني عنوة،

هو طاهرٌ كطهرِ الأقصى.. ومقدسٌ كحبكِ لفلسطين"

ابتسمت "وانا" خجلًا ثم نظرت إليه مُغلقةً عينيها في استنكار وقالت:

-"ألا تملك شيئًا غير كلماتكَ هذه أيها الشاعر؟"

نظر إليها غيث متعجبًا ثم أردف:

="لقد عرضت عليكِ الزواج منذ قليل والآن تخبرينني أنني لا أملك شيئًا غير كلماتي. ما الذي تريدينه أنا حقًا لا أفهمكِ!!"

تنهدت "وانا" ثم قالت:

-"لا أريد أي شيء. لقد حصلت على ما لم أتمناه يومًا، لكنه كان أعظمُ بكثيرٍ مما تمنيت صدقني".

*****

(١٥)

مرت الأسابيع والوضع على ما هو عليه بين مدٍ وجزر ولا جديد يذكر. المقاومة تتحرك في طريقها مُحاولةً جذب جهات الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعيّ والمنظمات الحقوقية قدر الإمكان، ولا تتوانى لحظة عن إثارة البلبلة وهدم الاستقرار الإسرائيليّ.

والدول العربية المنضمة إلى الصف اللبنانيّ المصريّ قد بدأت في الزيادة، ولم تتوانَ هي الأخرى لحظة عن الضغط على الطرف الأمريكيّ لإنهاء الأمر برمته وإخراج إسرائيل في أقرب وقت من الأرض الفلسطينية وإعلان قيام دولة فلسطين مرةً أخرى وانتهاء دولة إسرائيل تمامًا هذه المرة. والوضع في غاية الخطورة على الطرف الأمريكيّ لأن كل محاولاته في إيجاد وطن آخر للإسرائيليين تبوء بالفشل؛ فكل الدول رأت التجربة الفلسطينية وعاصرت أحداثها ورأت ما وصل إليه الوضع الفلسطينيّ هناك، وبناءً عليه لا تقبل أي دولة الوجود الإسرائيليّ بها ولا حتى قبول أعداد قليلة ومحاولة توطين الإسرائيليين أفواجًا على البلدان الأخرى المختلفة.

وبدأت فكرة سوداء تلوح في الأفق أمام الطرف الأمريكيّ تمنى عدم حدوثها على الإطلاق لأن نتيجتها ستكون وخيمةً بحق.

أما الوضع داخل فلسطين فلازال الضعف والانقسام هما سيدا الموقف، ولازالت فتح تقاتل في معركتها على الضفة الغربية وحماس في غزة ولا بوادر لاتفاقٍ قريب.

حتى أتى ذلك اليوم؛ في ذلك الاشتباك بين القوات الإسرائيلية وقوات حماس في غزة، كادت رصاصة من جنديّ إسرائيليّ أن تودي بحياة أحد أفراد حماس لولا أن أنقذه أحد المواطنين بأن جذبه بعيدًا عن اتجاه الرصاصة، وكان هذا المواطن أحد أعضاء فتح الذي أتى للاطمئنان على أسرته، ليطلب بعدها دعمًا من باقي أفراد مقاومته في الضفة الغربية دفاعًا عن غزة التي بدأت القوات الإسرائيلية تعيث فيها فسادًا.. ليتحد الصفّان من جديد.. فتح وحماس في جانبٍ واحد ضد عدوهم الأول.. إسرائيل.

وكأن هذا الاتحاد بعد انقسامٍ طال وطال كان هو الدافع لتزداد عمليات الضغط في كل مكان داخل فلسطين وخارجها، فالضغط الآن بات أقوى بأن بات الطرف الفلسطينيّ واحدًا بعد أن كان منقسمًا لعقود. والآن عادت الأمور إلى نصابها الطبيعيّ.

ومع انضمام الدول العربية التي تزايد عددها كثيرًا بات الضغط على أوجّه على الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل إلى أن تقرر إرسال لجنة أخرى من الأمم المتحدة لتنظر في المطالب التي بات يطالب بها الملايين الآن.

وحدث الأمر بالفعل، سفراء الكثير من الدول العربية، أفراد المقاومة الفلسطينية، جمعيات حقوق الإنسان، الناشطون السياسيون من كل مكان. كلهم مجتمعون لانتظار هذه اللجنة، ومطلب وحيد يتكرر صداه في الأرجاء ولا يتغير.. "تحرير الأقصى" ولن يتم التنازل هذه المرة، فهذه المرة هي الأقصى وإلّا فلا.

وحدث التصويت على الأمر في الأمم المتحدة وانقسمت الدول إلى نصفين ولم يكتمل النصاب. لكن هذا لم يُثنِ من عزيمة العرب ولا حتى تقهقرهم خطوة واحدة للوراء بل على العكس من ذلك، ازداد الضغط كثيرًا بل ووصل الأمر إلى حد إعلان الدول العربية ومعها الكثير من الدول الأجنبية اتحادها وبأنه إذا لم يتم تنفيذ الأمر وتحرير الأقصى ستُعلن الدول العربية الحرب على إسرائيل.

*****

أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية في موقفٍ لا تُحسد عليه؛ فالدول كلها تقريبًا باستثناء قلة قليلة قد انقلبت على إسرائيل وكأنها تريد الثأر لكل فلسطينيّ وفلسطينية، وعليه لم تستطع الولايات المتحدة الأمريكية أخذ خطوة جادة فهي بين شقيّ الرحى بين المطلب العربيّ والذعر الإسرائيليّ الذي لن تستطيع التعامل معه على الإطلاق إذا حدث.

لكن كان الاتحاد هذه المرة منذرًا بما لا يُحمد عقباه للطرف الأمريكيّ والإسرائيليّ معًا، فتأخر الولايات المتحدة الأمريكية في أخذ خطوة، وتأخر إسرائيل في الرحيل أدى إلى بداية الحرب بالفعل.

وكانت الحرب ضارية وكأنها حربٌ عالمية ثالثة. العالم أجمع اجتمع هذه المرة لمجابهة عدو واحد، ولن يتهاون معه بل سيقضي عليه ويقوم بمحوِ عرقه إذا لزم الأمر.

الكثير من القوات العربية البحرية والبرية والجوية متمركزة في كل شبرٍ من أرض فلسطين. وفتح وحماس ينشرون قواتهم بعناية لتضرب بلا هوادة فهم الأكثر دراية بطبيعة عدوهم الغاشم. والمقاومة تساعد بكل ما تستطيع؛ ففي غزة على سبيل المثال

ترك غيث مركز الصيد للقوات العربية لتتمركز فيه وتضع قواتها وذخيرتها، وهكذا فعلت ريمان ورزان وأحمد في أماكنهم أيضًا.

وأما الأهالي فلم يتركوا سلاحهم منذ قديم الأزل؛ فالحجارة قد عادت مرةً أخرى إلى الأيدي، وكل من طالت يداه سلاحًا أيًا كان نوعه أمسك به وأصبح على أهبة الاستعداد.

*****

١٦

"لكن أذكركم فقط فتذكروا
لقد كان هذا كله من قبل واجتزنا به
لا شيء من هذا يخيف، ولا مفاجأة هنالك
يا أمتي ارتبكي قليلًا، إنه أمرٌ طبيعي
وقومي..
إنه أمرٌ طبيعي كذلك"

تميم البرغوثي

واشتدت الحرب، الطرف العربيّ يقاتل بشراسة فالغفوة قد انتهت والصحوة قد أتت وبقوة ولا مجال للتراجع، فكلٌ يعرف هدفه جيدًا ولا يضع إلّاه نصب عينيه. أما الطرف الإسرائيليّ فكان هو الأضعف هذه المرة، ورجحان الميزان لم يكن لكفته على الإطلاق، وذاق الخوف الذي أذاقه لأصحاب الأرض لعقود، لكنه حاول التمسك بأملٍ واهٍ حتى يحافظ على ماء وجهه في حربٍ كان يعرف بكل الطرق أنه سيخرج منها ذليلًا، لكنه ظل

محافظًا على أمل التدخل الأمريكيّ الذي سيسعفه وينقذه كما كان يفعل دومًا.

لكن الولايات المتحدة الأمريكية كانت في موقفٍ أضعف من الموقف الإسرائيليّ بكثير؛ فالأسد العربيّ قد استيقظ من ثباته بالفعل. وانضمامها إلى الطرف الإسرائيليّ ومحاولة إنقاذ القط من براثن الأسد ستؤدي إلى أن تذهب سُدى هي الأخرى وسيأخذها الطوفان في طريقه ولن يتوقف بالمرة ليرى العلم الأمريكيّ وترتعد فرائصه كما كان يحدث في السابق، بل سيبتلعها بلا هوادة. لهذا وجدت أنها أمام خيارٍ واحدٍ فقط لا بديل عنه، أن تعلن هزيمة دولة إسرائيل في الحرب وخروجها من فلسطين واتخاذ الولايات المتحدة الأمريكية موطنًا لها حتى يتم النظر في أي مكانٍ على وجه البسيطة من الممكن أن يصلح موطنًا لإسرائيل.

وبعد هذا البيان الأمريكيّ الذي أتى بعد مشاورات مع رئيس الوزراء الإسرائيليّ توقفت الحرب، وتجمع الإسرائيليون في شكل صفوف يحملون أمتعتهم ويرحلون بعيدًا عن الأرض الفلسطينية. وكان هذا هو شرط الصف العربيّ، أن يخرجون بهذه الطريقة تحديدًا من الأرض حتى يدركون حجم الدمار الذي خلّفوه منذ

أول يومٍ وطأت أقدامهم الأرض الطاهرة، وحتى ينظرون آثار أقدامهم ويحفظون الموقف عن ظهر قلب كي يتذكرون الطريقة التي خرجوا بها تمامًا كما يتذكرون تلك التي دخلوا بها.

وكأن صوت تميم البرغوثي كان يتردد صداه في الأرجاء وهو يصدح بقوله:

"من أين يأتيكم شعور أنكم ستُعَمّرون إلى الأبد
ثقة لعمري لم أجدها في أحد
عيشوا كما شئتم ليومٍ أو لغد
لكنني صدقًا أقول لكم
فقط من أجل منظركم، وهيبتكم
إذا سرتم غدًا في شاشة التلفاز
سيروا صاغرين"

وفي هذه الأرجاء وفي ظل كل الحماس المنتشر في الأجواء ورحيل العدو من الأرض الطاهرة، خرجت رصاصة وكأنها قد أتت من العدم لتستقر في قلب غيث ليسقط على الفور في مكانه إلى جانب وانا، ليصدح صوت رصاصةٍ أخرى في الثانية التي تليها لتستقر في جسد هذا الجنديّ الإسرائيليّ الذي أطلقها. لم يكن المقصود هو غيث بل مركز الصيد الذي تقبع فيه الذخيرة العربية

خلف غيث كي تتفجر ويترك ضحايا ودمارًا أكبر مما ترك، وكأنها محاولة الانتقام الأخيرة التي أودت بحياته وأدت إلى مقتله في النهاية.

ثم وكأن الصورة بكاملها يتم تصويرها ببطءٍ لعينيّ "وانا" وهي ترى الدماء تتفجر في جسد غيث ليسقط على ركبتيه أولًا ثم ينهار جسده مسجيًّا على الأرض إلى جوارها، لتهوى على الفور إلى جواره وهي تهمس له:

"كلا غيث.. كلا.. أنت بخير.. انظر إليّ.. لا تفقد الوعي غيث.. تحدث معي.. أرجوك"

وكانت عبراتها تنهمر لتمنعها من إكمال ما تريد من كلمات. كان الجميع ينظرون إليهما في هلعٍ وعجز. وقام أحدهم بطلب الإسعاف لإنقاذ غيث وكلٌ متأثرٌ بما يرى فهو يعلم أنها مسألة ثوانٍ وستصعد الروح لخالقها فالرصاصة قد استقرت في قلبه بالفعل.

أما غيث فقد كان يجاهد كي تخرج كلماته واضحة إلى أذني وانا، وعندما استطاع التماسك نظر إلى عينيها التي تستجديه ألّا يرحل ويتركها ثم نطق بصعوبة قائلًا:

="أمي.. وانا، لا تتركيها أرجوكِ ليس لها أحدٌ سواي

واعتنِ بنفسكِ جيدًا، أنتِ قوية وستكملين ما بدأناه، وستقفين في الأقصى مرةً أخرى وهي ملكٌ لنا لا يشاركنا فيها أحد.."

ثم جاهد ليبتسم وهو يقول:

="ألم أخبركِ من قبل أن عينيكي تمنحان السلام في كل مكانٍ تذهبين إليه، يكفيني سلامُ قلبي الذي لم يكن يهدأ أبدًا من كثرة حروبه، وعرف الأمان عندما وجدكِ وانا، وحتى الآن هو في سلام... لا تنسيني.. في دعائكِ.. رجاءً"

ثم أغمض عينيه إلى الأبد، ليرحل بعيدًا إلى خالقه بعد أن أنهى ما بدأه، وبعد أن رأى ما تمنى رؤيته لعقود، وبعد أن عاد الحق لأصحابه أخيرًا، تاركًا جمعًا من الناس يبكونه ووانا إلى جواره لم تتوقف دموعها عن الانهمار لحظةً واحدة وهي تنادي باسمه ألّا يتركها ويرحل.

*****

١٧

انتهى الأمر برمته وفجأة أصبحت فلسطين خالية وهادئة، وديعة كسابقِ عهدها، جميلة نقية كما هي دومًا على الرغم من آثار الحرب الموجودة في كل مكان إلا أنها جميلة بحق.

وكأن السلام قد حلّ من جديد وعاد لمكانه الطبيعيّ مرةً أخرى. وبدأت الطيور تتغنّى من جديد ويظهر صوتها واضحًا جليًا في كل مكان بعد أن قامت القنابل بطمره بصوتها الذي يجلب معه الموت والدمار.

ولأول مرة ومنذ عقود يتوقف صوت القنابل والمدافع والرشاشات وطلقات النيران. ولأول مرة منذ عقود يخرج الفلسطينيون من منازلهم دون خوف، دون هذا الشعور أن أحدًا سيقوم بطردهم من أرضهم أو قتلهم في أي وقت. لأول مرة يشعرون أن هذه الأرض هي ملكٌ لهم بالفعل وأنهم وحدهم أصحابها بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لا يشاركهم فيها أحد، فما أروع العودة بعد سنينٍ طوال من الفقد. وللمرةِ الأولى منذ ١٩١٧ تبقى الأرض بشعبها،

بعد قرونٍ من "أرضٍ بلا شعب.. لشعبٍ بلا أرض".

وقرر العرب إكمال الطريق إلى نهايته حيث أتت مساعدات كثيرة من كل بقاع الأرض تقريبًا إلى فلسطين في سابقة لم تحدث من قبل؛ لإعادة فلسطين إلى ما كانت عليه.

ظلت المساعدات تأتي إلى مخيم الشاطئ أيضًا الذي لم يعد مخيمًا فلم يعد هناك لاجئون؛ فكل من كان قد ترك قريته ورحل يلتجئ لمكانٍ آخر عاد إلى مكانه مرةً أخرى، وكان من ضمنهم أسرة "وانا" التي عادت إلى قرية الفالوجة مرةً أخرى، إلى بيتِ جدِ "وانا" الذي بات أفضل من السابق.

وفيما يخص رزان وريمان وأحمد ووانا فدورهم أصبح أقوى من ذي قبل، فهؤلاء هم الأبطال الذين بدأوا الأمر برمته واستطاعوا العمل جيدًا على إعادة إعمار ما تهدّم في غزة وانهار.

أما "وانا" فرفضت ترك المكان، وساعدها أحمد ورزان وريمان على بناء منزل لها ولوالدة غيث أمام البحر تمامًا كما أراد غيث قبل وفاته. وأصبحت تتردد على والديها في قرية الفالوجة بين الحينِ والآخر، ودُفن غيث ويمان وخالد في مقابر البلدة.

*****

وبعد مرور شهرٍ على ما حدث، عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل ١٩٤٨ بل وأفضل، وعاد الاستقرار مرةً أخرى، وحل السلام أخيرًا على الأرض التي فقدته لقرون.

ذهبت "وانا" إلى المقابر ووضعت رسالتها التي خطّتها بيدها فوق قبر غيث ثم التفتت باتجاه الشاطئ، وعندما كانت تسير كان صوتها يصدح برسالتها:

"غيث، لا أعلم بمَ أبدأُ إليكَ رسالتي لكن أعتقد أن قولي بأننا قد انتصرنا هو أفضل بداية، لقد انتصرنا غيث، حررنا فلسطين، عادت لنا أرضُنا الطاهرة.

أخرجنا إسرائيل غيث، أخرجناها تمامًا وعادت فلسطين نقية كما كانت. كل شيءٍ أصبح على ما يرام وحل السلام، ولم يحل بسبب عينيّ كما كنت تقول، أتذكر!! لم تكن تمنح السلام لأحدٍ إلّاكَ غيث.

رحيلكَ كان بمثابة تلك القشة التي قصمتني. أنتَ كنتَ دعمي مذ بدأتُ ذلك الطريق. عندما أخبرتني بحبكَ وبحياتنا معًا رسمتها مثلكَ تمامًا وبت أنتظر الانتصار بفارغ الصبر حتى يتحقق لكل شخصٍ أمنياته، لكن رحيلكَ منع عني أمنياتٍ كثيرة لم أكن أتصورها إلّا معك.

لكنني أشعر برضا في قرارة نفسي لأنكَ ورغم رحيلكَ عن هذه الدنيا إلا أنك باقٍ في قلبي لم ولن ترحل. وما جعلني أكمل ولا أتوقف هو معرفتي بأنكَ لا زلتَ تدعمني إلى الآن وتراني ولن تتركني أبدًا.

أود طمأنتكَ أيضًا على والدتك، لازلنا هنا أنا وهي نعيش في البيت الذي بنيناه أمام الشاطئ كما كنت تريد، لا نتوقف عن زيارة يمان وخالد والدعاء لهما بالرحمة.

رزان تكمل عملها في مصنع الملابس، بات مصنعًا وليس مشغلًا غيث وباتت هي مديرته. وريمان باتت مديرة المدرسة وقامت بالكثير من التوسعات حتى باتت تشمل كل أطفال المخيم السابقين وأطفال حيّ الرمال الجنوبيّ أيضًا. أما أحمد فقد بات مديرًا للمشفى وأكبر أطباء غزة. وأنا قمت بتوسيع مركز الصيد حتى بات الأكبر في كل فلسطين ولا يأتي أحدٌ هنا إلا ويتذكركَ ويشيد بما فعلت ويدعو لكَ بالرحمة. بتُّ أيضًا آخذ والدتكَ للشاطئِ كل يومٍ نجلس معًا وأقوم أنا بالصيد وإلقاء كل قصائد تميم البرغوثي عليها. لم تكن تعلم أنكَ تحبه أتدري هذا!!

كلُ شيءٍ على ما يرام الآن غيث، بات النوم أهنأ للمرةِ الأولى أيضًا. ويمكنني أن أصدقكَ القول وأخبركَ أن الأمان قد عاد.

أيّا مَنْسِيْ

لقد استعدتُ أماني الذي كنت قد فقدته من قبل، فقدته عندما وجدت نفسي أسيرة فقط لكوني فلسطينية رغم أن هذا هو كل الشرف، ثم استعدته بوجود أخي غسان الذي لم يشعرني يومًا بأنني أسيرة ومنحني كل أمان العالم، ثم عدت لأفقده بفقدان غسان لأظل في خطرٍ محدق وقسوة عالم لا تنتهي إلى أن أتيتَ أنتَ لتعيده إليّ مجددًا، ولأشعر معكَ أن هناك عدلًا في هذا العالم وليس كله بظلم إسرائيل، وأن أحدهم يمكنه أن يمنحك الأمل من جديد بعد أن تحاول كل الطرق سلبه منك. فكنتَ أنتَ غيثي في وقتٍ نضب فيه كل شيء، نضبت فيه أرضُ فلسطين، نضب فيه السلام، ونضب فيه قلبي من الحب وبات يراه مستحيلًا إلّا في شاشات التلفاز. كنتَ غيثي الذي انتظرته طويلًا.

هذا ما فعلته غيث، كنتَ أنتَ أماني من قسوة هذا العالم وشروره، كنتَ أنتَ قوتي في مواجهة إسرائيل، كنتَ أنتَ درعي لاسترداد الأقصى، كنتَ أنتَ عكّازي وقت سقوطي وانهياري، وكنتَ أنتَ اليد التي تمدني بالقوة لأكمل من جديد ولا أيأس أبدًا.

نعم أهديتَني الكثير من القصائد والحب غيث، ولم أستطع إهداءَك منها ما تستحق قبل رحيلك. لكن صدقني تركت لكَ إرثًا عظيمًا أعلم أنكَ تشعر به الآن وسيجعلكَ في راحة..
حررتُ لكَ الأقصى غيث.. حررتُ الأقصى"..

تمت
٢٠١٩/٨/١٢

ختام

لم أرغب في وضعِ ختامٍ للرواية. ليس لشيءٍ إلا أنني لا أريد للقارئ أن يشعر أنني أجبره على النظر إلى القصة بمنظوري أنا، بل أريده أن يحياها، يشعر بكل كلمةٍ فيها وتصل إلى أعماق قلبه..

يشعر كما لو كان هو بطلها وليس فقط مشاهد يتابع الأحداث من وراء الشاشة ولا يلمسها بيديه..

لهذا لن أخبرك في النهاية هيا ننهض ولا نتقاعس عن الدفاع عن القضية، أو هيا لنحرق ما تطاله أيدينا لنستعيد القدس.. بل سأخبرك أنك طالما وصلت إلى هنا فهذا يعني أنك قد قرأت الصفحات السابقة وشعرت ولو لثانية أنك مكان أحد شخوص الرواية، أو كما لو كنت تحيا أمام شاطئ البحر وترى كل تفصيلةٍ في فلسطين كأنك هناك.. في قلبها النابض.. غزة..

لهذا لن أخبركَ أنا بالختام أو أضع سطر النهاية.. بل سأتركك أنت تضع الختام الذي تريد..

ميار طارق

أيّا مَنْسِيْ

للتواصل مع الكاتبة

صفحة الفيس بوك:

https://www.facebook.com/-Mayar-Tarek

صفحة الانستاجرام:

https://www.instagram.com/mayar_tarek_27

من أعمال الكاتبة:

رواية صَرَخَتْ ٢٠١٨

مصادر تم الرجوع إليها:

١- موقع أراجيك
٢- موقع المركز الفلسطيني للإعلام
٣- موقع صوت الوطن